

جامعة القديس يوسف - بيروت
معهد الدراسات الإسلامية والمسيحية



سلسلة "النَدوات الإسلاميَّة المسيحيَّة" ٣

النَّصّ الدِّينيّ ووظيفتُه

في الحياة الرّوحيّة الشّخصيّة والجماعيّة في المسيحيّة والإسلام



دار المشرق - بيروت



النَّصّ الدِّينيّ ووظيفتُه

في الحياة الرّوحيّة الشَّخصيّة
والجماعيّة في المسيحيّة والإسلام


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان



جامعة القدّيس يوسف - بيروت
معهد الدّراسات الإسلاميّة والمسيحيّة



سلسلة "النَّدوات الإسلاميَّة المسيحيَّة" ٣

النَّصّ الدِّينيّ ووظيفتُه
في الحياة الرّوحيّة الشَّخصيَّة والجماعيَّة في المسيحيَّة والإسلام

أعمال طاولة مستديرة
عُقِدَت بالتعاون بين
معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة
في جامعة القدّيس يوسف
ومعهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينيّة
والفلسفيّة
في ١٩ و٢٦ نيسان/ أبريل ٢٠٠٥

دار المشرق - بيروت

دار المشرق ش م م،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ١١٠٠ ٢١٥٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5030-1

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سن الفيل
ص.ب. ٥٥٢٠٦، بيروت - لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
Email: libor@cyberia.net.lb



التقديم والافتتاح(*)

الشيخ محمّد نُقَّري

باسم معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف أرحّب بالحضور وبالمشاركين في هذه الندوة التي تعقد بالمشاركة بين معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة وبين معهد المعارف الحِكْميّة، وهذه الندوة تحمل عنوان: «النصّ الدينيّ ووظيفته في الحياة الروحيّة الشخصيّة والجماعيّة في المسيحيّة والإسلام».

تركن أهمّيّة هذا الموضوع في معرفة حقيقة النصّ الدينيّ وتحديد الغاية منه وانعكاساته على الإنسان كفرد وكمجموعة. فالنصّ الدينيّ يُطلق

(*) عُقدت الحلقة الأولى يوم الثلاثاء ١٩ نيسان ٢٠٠٥، في قاعة المحاضرات في معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة، وقد ترأسها وأدارها سماحة الشيخ محمّد نُقّري، وتكلّم فيها كلّ من سماحة الشيخ محمّد خاتون (معهد المعارف الحكميّة)، والأب جوزيف جبارة (معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة)، وسماحة الشيخ محمّد زراقط (معهد المعارف الحكميّة).

للتمييز بينه وبين النصّ البشريّ، وأقول للتمييز وليس للتضارب والاختلاف. فالغاية في النصّ الدينيّ هي لإيصال الحقيقة إلى البشر، حقيقة وجود الله وخلق الكون والانطلاق منهما إلى عبادة الخالق. والغاية من النصّ الدينيّ هي أيضًا السعادة للبشر جميعًا، وهذا ما حدّده أُصوليّو علم الكلام في تعريفهم للدين، إذ قالوا بأنّ الدين هو وضع إلهيّ سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما هو خيرهم بالذات. وهم بهذا التعريف تمايزوا عن المفهوم الغربيّ للدين الذي تجاوزت تعاريفُه عدّة مئات في المصنّفات الأجنبيّة، ولكنّ المشترك فيها هو تحديد نطاق الدين في مجال العقائد والطقوس. والنصوص الدينيّة هي أيضًا مقدّسة باعتبار مصدرها المرتبط بالوحي والإلهام عند الله تعالى وهي بهذا تنقسم إلى نصوص موحى بها في المعنى فقط، وهذا ما يوصلنا إلى تعريف ثلاثة أنواع من النصوص الدينيّة الإسلاميّة الموحى بها:

١ - القرآن الكريم الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق والذي نزل به أمينُ الوحي جبريل على النبيّ محمّد (ﷺ) باللغة العربيّة المعجزة المؤيّدة له، المتحدّى به العرب المتعبّد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر والمبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس.

٢- الحديثُ القدسيُّ: ما نُقل إلينا عن النبيّ (ﷺ) مع إسناده إيّاه إلى ربّه عزّ وجلّ. والفرق بين الحديث القدسيّ وبين القرآن: «إنّ القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحي جليّ، وأمّا الحديث القدسيّ فهو ما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام».

٣- الحديث النبويّ: هو قول الرسول وفعله وتقريره وهمّه وعزمه. والأحاديث النبويّة تدخل ضمن النصوص الدينيّة الموحى بها باعتبار أنّ الرسل يُبَلِّغون كلامَ الله وإرادته، فالرسول لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

وهذا ما يوصلنا إلى تقديم المحاضرة الأولى التي هي بعنوان «الحديث النبويّ ودوره في بناء أواصر المحبّة الإنسانيّة». حيث سنتعرّف من خلال هذه المحاضرة على الحديث النبويّ ودوره الذي قام به خلال العصور في إكمال ما قام به رسلُ الله وأنبياؤه جميعًا من لدن آدم وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم في تأسيس وتدعيم أواصر المحبّة الإنسانيّة. هذه المحبّة التي حدّد فيها الرسول محمّد (ﷺ) تعريف هويّة المسلم حيث قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»،

وأيضًا حين قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن مَن نام وجارُه جائع»، وأيضًا حين قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت بأنه يورثه».

يلقي علينا هذه المحاضرة فضيلة الشيخ محمّد خاتون مدير عامّ المركز الإسلاميّ للتبليغ وأستاذ في الحوزة العلميّة وباحث في الفكر الإسلاميّ.

بعد المحاضرة الأولى والمحدّد لها عشرون دقيقة سوف نترك المجال لمدّة خمسة دقائق فقط للأسئلة حول موضوع المحاضرة حصريًّا، ثمّ ننتقل إلى المحاضرة الثانية فالأسئلة ومن بعدها، وقبل الشروع في المحاضرة الثالثة سوف نترك المجال لاستراحة قصيرة لمدّة عشرة دقائق على أن نخصّص الأسئلة والحوار في المواضيع الثلاثة إلى نهاية الندوة ولمدّة ثلاثة أربع الساعة.



الحديث النبويّ
ودوره في بناء أواصر المحبّة الإنسانيّة

الشيخ محمّد خاتون
معهد المعارف الحكميّة

باسمه تعالى.

قبل البدء بالحديث هناك مقدّمتان.

١ - في قوله تعالى «الرحمن علّم القرآن» - إشارة إلى اندماج اختلاط المفهوم القرآنيّ والرساليّ بالرحمة التي تتضمّن المحبّة وذلك بأنّ مصدر الحبّ في الكون هو الله عزّ وجلّ ولم تكن المفاهيم الصادرة عن الدين إلّا حاكية عن مصدر الحبّ في هذا الكون.

٢ - إنّ العلاقات التي يمكن أن تورث المحبّة هل يمكن أن تكون صادرة من علماء النفس والاجتماع باعتبار أنّهم مطّلعون على نقاط القوّة والضعف في النفس والمجتمع؟ والجواب لا بالطبع.

أوّلًا: لأنّهم لن يطّلعوا على كلّ نقاط الضعف والقوّة.

ثانيًا: لو كانوا كذلك فإنّ الأهواء لا بدّ أن تكون حاجبة دون الوصول إلى إقامة علاقات المحبّة، أو أن تكون بفعل العمل السياسيّ.

والجواب بالطبع لا، فليس هناك مسلّمة في السياسة إلّا شيء واحد وهو أنّه: «لا مسلّمة في السياسة». فحبيب الأمس عدوّ اليوم وعدوّ اليوم يمكن أن يكون حبيب الغد.

وهذا يعني أنّ أواصر المحبّة لا يمكن أن تكون إلّا في تعاليم الأنبياء المنزّهين عن الأهواء والمنطلقين من موقع الرحمة واللطف والمحبّة للإنسان، والذين يعلمون ما علّمهم الله ممّا هو دور لهم في نشر المحبّة من موقع حبّ الله للناس، وحبّ الأنبياء لله، وحبّه لهم وحبّ الأنبياء للناس. فلا بدّ أن تكون هذه المفاهيم المجرّدة عن الذات حافزًا على نشر المحبّة بين الإنسان والإنسان.

ومن هنا نستطيع أن نقسّم الحديث النبويّ، ولكن لا على سبيل الحصر، إلى أصناف.

* **الأوّل**: الحديث الذي يُبيّن أنّ الارتباط الأعظم بالله هو ارتباط المحبّة.

فإنّ الناس يختلفون في عباداتهم ومعاملاتهم التي يقومون بها لوجه الله، باختلاف الدافع الذي يدفعهم. فهناك مَن يفعل الأمر من أجل إنقاذ نفسه

من العقاب، وهناك مَن يفعل ذلك من أجل نيل الثواب. وفي كلا الأمرين فضلٌ للفاعل وهو ممدوح بالمجمل على هذا الفعل، غير أنّ العلاقة الأرقى التي ينبغي أن تحكم الإنسان بفعله هي ما يكون منطلقًا من دافع المحبّة لله عزّ وجلّ، حيث يكون الفعل محضًا خاضعًا لرابط يربط المالك بالمملوك والخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق، وأيّ علاقة رحمة ومحبّة تكون أقوى من تلك التي تربط المخلوق والمملوك والمرزوق بالخالق والمالك والرازق، وهذا نجده جليًّا في مجموعة من الأحاديث:

عن رسول الله (ﷺ) إنّه قال: «إستأذن ملك ربّه أن ينزل إلى الدنيا في صورة آدمي فأذن له فمرّ برجل على باب قوم يسأل عن رجل من أهل الدار فقال الملك: يا عبد الله أيّ شيء تريد من هذا الرجل الذي تطلبه؟ قال: هو أخ لي في الإسلام أحببته في الله جئت لأسلّم عليه، قال وما بينك وبينه رحم ماسّة ولا يرغبنّك إليه حاجة؟ قال: لا إلّا الحبّ في الله عزّ وجلّ جئت لأسلّم عليه، قال: فإنّي رسول الله إليك وهو يقول: قد غفرت لك بحبّك إيّاه في الله».

وعن رسول الله (ﷺ) إنّه قال: «إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في

ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وأخرى يعبدونه فرقًا من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة، لكنّي أعبده حبًّا له عزّ وجلّ فتلك عبادة الكرام، وهو الآمن لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾».

وعنه (ﷺ): «وهل الدين إلّا الحبّ في الله والبغض في الله» قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾».

وعنه (ﷺ): «يا عليّ: أوثق عُرى الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله».

* **الثاني**: الحديث الذي يبيِّن القيمة الحقيقيّة للمحبّة.

فقد يُتصوّر أنّ المحبّة هي مجرّد إحساس عابر وذلك بتخيّل المحبّة التي تكون بين البشر بدافع بعض الأعمال البشريّة أو بدافع القرابة والنسب وما شابه. غير أنّ هذا التصوّر ليس في محلّه، فإنّ المحبّة التي تنشرها دعوات الأنبياء هي المحبّة التي تحمل مضمونًا مقدّسًا ناشئًا عن فهم فلسفة الدين وروح العلاقة بين المفاهيم الدينيّة التي وُجدت لأجل الإنسان، وبين الإنسان الذي وجد لأجل تلك المفاهيم الدينيّة، ولا يمكن تصوّر العلاقة الجدليّة بين الإنسان وبين المفاهيم الدينيّة إلّا من

خلال فهم روابط المحبّة التي قد أُشبعت في داخل المفاهيم النبويّة كما أُشبعت في داخل الفطرة البشريّة وبالتفاعل بين هذا وهذا إيجابًا تأخذ المجتمعات الإنسانيّة طريقها إلى الصعود والرقيّ. وبالمقابل إذا كان التفاعل سلبًا فإنّ المجتمعات تأخذ طريقها إلى الهوي والنزول حتّى تتلاشى فيما بعد، إذا اضمحلّت المحبّة وتلاشت.

قال رسول الله (ﷺ): «أفضل الناس بعد النبيّين في الدنيا والآخرة لله المتحابّون فيه».

وعنه (ﷺ): «والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتّى تحابّوا».

وعنه (ﷺ): «لا تزال أُمّتي بخير ما تحابّوا، وأدّوا الأمانة، واجتنبوا الحرام، وقرّوا الضيف، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين».

وعنه (ﷺ): «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف ترى في رجل أحبَّ قومًا لم يلحق بهم؟ فقال رسول الله (ﷺ): المرء مع مَن أحبّ».

وعنه (ﷺ): «إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيرًا فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعته ففيك خير والله يحبّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله

ويحبّ أهلَ معصيته فليس فيك خير والله يبغضك».

وعنه (ﷺ): «المتحابّون في الله يوم القيامة على أرض زبرجد خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه وكلتا يديه يمين، وجوههم أشدّ بياضًا من الثلج وأضوأ من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كلّ ملك مقرّب ونبيّ مرسل، يقول الناس: مَن هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابّون في الله».

* **الثالث**: الحديث الذي يهدف إلى ما يورث المحبّة فإنّها نتيجة لا يحصل عليها المرء إلّا من خلال مجموعة من الأعمال والخصال.

فإنّنا إذا نظرنا إلى موضوع المحبّة ورأيناه أصلًا قائمًا بذاته بحيث إنّ المحبّة تكون وسيلة من جهة، ومنطلقًا ودافعًا من جهة أخرى، وغايةً وهدفًا من جهة ثالثة، فلا بدّ أن تكون منظومة الأحكام والمفاهيم والتشريعات تصبّ في خانة أن تجعل في موقع المؤدّي إلى إيجاد المحبّة. وبعبارة أخرى لا بدّ من وجود ما يؤدّي إلى نشر المحبّة وهذا ما نجده في هذه المجموعة من الأحاديث النبويّة الشريفة:

فعنه (ﷺ): «النصح يثمر المحبّة».

وعنه (ﷺ): «ثمرة التواضع المحبّة».

وعنه (ﷺ): «من حسن ظنّه بالناس حاز منهم المحبّة».

وعنه (ﷺ): «حسن الخلق يورث المحبّة ويؤكّد المودّة».

وعنه (ﷺ): «ما استجلبت المحبّة بمثل السخاء والرفق وحسن الخلق يزرع المحبّة».

وأختم الكلام بالإشارة إلى الحديث النبويّ المشهور: «الخلق كلّهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله». فإنّ كلمة العيال توحي بالمحبّة والمودّة بذاتها وتدفع أتباع النبيّين أن يتعاملوا مع البشريّة على أنّهم عيال الله والله يحبّهم لأنّهم عياله. وبالتالي فإنّ النفع الذي يجب أن يقدّم لهؤلاء يجب أن يقوم على أساس المحبّة بعيدًا عن كلّ الآثار التي ترافق عمليّة النفع عادةً، والتي يخالطها المنّ والأذى إذا كان العطاء عطاءً ماديًّا، أو يرافقها شيء من شفاء الغيظ وغيره من الأحاسيس التي تحبط ذلك النفع عند الله عزّ وجلّ، إذا كان النفع هدايةً وذلك يتصوّر أنّ الحوار الذي يقوم بين بني البشر ما هو إلّا لانتصار أحد الطرفين. بل يجب أن يقوم كلّ شيء على أساس المحبّة التي من خلالها يحصل النفع الحقيقيّ للمُعطي والمُعْطَى له، وللمتكلّم والسامع، وليست تلك الأمور إلّا نابعة من الحبّ لله عزّ وجلّ الذي ينعكس حبًّا بين البشر حتّى في أحلك ظرف يكون بين هؤلاء البشر، وهو ظرف العداوة. فإنّ

المطلوب أن تشفع المحبّة بين الإنسان وبين عدوّه على قاعدة أن ليس للإنسان تجاه عدوّه بغض لذاته وإنّما البغض لما يحمله من أفكار شيطانيّة كانت تشكّل خطرًا عندما كان في موضع القوّة، ولكن عندما زالت قوّته فينبغي أن تحكم الروابط الأصليّة في هذا المقام على قاعدة الحديث الشريف: «إذا أقدرك الله على عدوّ فاجعل الصفح عنه شكرًا للقدرة عليه».



دور الكتاب المقدّس عند آباء الكنيسة

الأب جوزيف كميل جبارة
جامعة القدّيس يوسف

يقول إيرونيمس: «مَن يجهل الكتب المقدّسة يجهل المسيح» (In. Is., Prol., n. 1)

مقدّمة

كان للكتاب المقدّس دور كبير ومهمّ في حياة آباء الكنيسة. فهؤلاء قبل أن يكونوا مدافعين، أو لاهوتيّين، أو مؤرّخين أو معلّمي أخلاق أو فلاسفة، كانوا قرّاءً ومفسّرين للكتاب المقدّس، ومؤلّفاتهم التي وصلت إلينا خير دليل على ذلك، إذ إنّها تحوي الكثير من التفاسير والشروحات والتعليقات الكتابيّة، فقلّما وُجد من بين هؤلاء الآباء مَن لم يعلّق على الكتاب المقدّس. يضيق بنا المجال في هذا الحديث أن نعالج بشكل شامل ووافٍ موضوع دور الكتاب المقدّس عند آباء الكنيسة، وذلك إمّا لكثرة الآباء، أو لوفرة المادّة في مؤلّفاتهم. لهذا سيقتصر بحثنا على أربعة محاور

رئيسيّة: ١) دور الكتاب المقدّس في الحياة الشخصيّة لآباء الكنيسة، ٢) دور الكتاب المقدّس في تحديد عقيدة الآباء والذود عنها، ٣) دور الكتاب المقدّس في الحياة الراعويّة لآباء الكنيسة، ٤) وأخيرًا دور الكتاب المقدّس في الحياة الروحيّة أو الصوفيّة عند آباء الكنيسة. ولكن قبل مقاربة هذه المحاور الأربعة، اسمحوا لي أن أحدّد باختصار الكلمات المستعملة في عنوان هذه المحاضرة: أي آباء الكنيسة والكتاب المقدّس.

مَن هم آباء الكنيسة؟

آباء الكنيسة هم كتّاب مسيحيّون قدماء امتازوا بقداسة حياتهم، وبجودة تعاليمهم التي تبنّتها الكنيسة المسيحيّة. يعدّ إيزيدوروس الإشبيليّ (✝ ٦٣٦)، آخر آباء الكنيسة الغربيّة، ويوحنّا الدمشقيّ (✝ ٧٤٩) آخرهم في الشرق.

الكتاب المقدّس الذي استعمله آباء الكنيسة.

لم يكن الكتاب المقدّس يومًا بالنسبة إلى آباء الكنيسة في يوم من الأيّام النصّ العبريّ المعروف حاليًّا في كلّ الطبعات العلميّة للكتاب المقدّس، بل كان النصّ اليونانيّ، أو بالأحرى الترجمة اليونانيّة المعروفة «بالسبعينيّة» (LXX). فهذه الترجمة التي ترقى في جزء منها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، تضمّ أسفارًا غير موجودة في النسخة العبريّة (مثل

أسفار الحكمة، ابن سيراخ، يهوديت، طوبيّا، كتابَي المكابيّين الأوّل والثاني، أو فصولًا ومقاطعًا يونانيّة أضيفت إلى الأسفار العبريّة (مثل سفر دانيال، ٣، ٢٤-٩٠؛ ١٣-١٤، مراثي إرميا، وسفر أستير (٣، ١٣أ-١٣ج إلخ). لهذا لم يشرح الآباء مطلقًا النصّ العبريّ، وقد اقتصر عملهم الكتابيّ على شرح وتفسير النصّ السبعينيّ أو أيّة ترجمة يونانيّة أخرى مثل ترجمة أكّيلا، وثيودوسيون، وسيماخوس[١].

أضف إلى ذلك، أنّ آباء القرنين الأوّل والثاني، لم يكونوا على علم بما يسمّى فيما بعد بالعهد الجديد، فالكتاب المقدّس بالنسبة لهم، كان العهد القديم فقط وبنصّه اليونانيّ.

بعد هذا التعريف المقتضب والضروريّ، انتقل لمعالجة المحاور الأربعة التي أتيت على ذكرها أعلاه.

---

(١) قام أكيّلا وثيودوسيون وسيماخوس بترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانيّة، فالأوّل (إبّان القرن الثاني) عُني عناية خاصّة بحرفيّة النصّ، فيما كانت ترجمة الثاني (ما بين سنة ١٨٠-١٩٢)، عبارة عن إعادة نظر في الترجمة السبعينيّة، أمّا الثالث والأخير (نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث) فقام بترجمة تمتاز بيونانيّةِ صيغتِها ولغتها، وبتفوّقها في الأمانة على الترجمات السابقة.

١ - دور الكتاب المقدّس في الحياة الشخصيّة لآباء الكنيسة

لقد كان الكتاب المقدّس الكتاب الأوّل الذي قرأه آباء الكنيسة، ويبدو أنّهم كانوا يعرفونه عن ظهر قلب. وكانوا يعتبرونه كلّه موحى به من الله، ومعصوم من الخطأ، ولا يضمّ بين دُفّتيه أشياء غير نافعة. لقد قرأوه ليس فقط ككتاب وحي يحمل رسالة خلاص ويروي قصّة افتقاد الله للإنسان وتدخّله في مجرى التاريخ لترميم العلاقة التي انقطعت بينهما، بل أيضًا ككتاب علم ومعرفة. فلمعرفة أصول الكون والإنسان وغاية وجودهما مثلًا، كان الآباء يطالعون هذا الكتاب لا سيّما سفر التكوين، الذي أكثروا من شرحه ومن التعليق عليه(٢). هذا من جهة، وككتاب حكمة، من جهة أخرى، حكمة تضاهي بأهمّيّتها، لكي لا نقول تفوق، الحكمة اليونانيّة(٣).

---

(٢) Cf. Y-M. CONGAR, «Le thème de Dieu Créateur et les explications de l'Hexaméron dans la tradition chrétienne», in *L'homme devant Dieu*, Mélanges offerts à H. de Lubac, p. 189-222.

(٣) يخبرنا الشهيد يوستينس († ١٦٥)، وهو أحد آباء الكنيسة المدافعين، كيف وصل إلى الإيمان المسيحيّ فيقول إنّه مرّ بمختلف المدارس الفلسفيّة، من رواقيّة، ومشائيّة، وفيثاغوريّة، وأفلاطونيّة، إلى أن نصحه أحد الشيوخ بقراءة الأنبياء والكتب=

كان آباء الكنيسة إذًا يقرأون الكتاب المقدّس باستمرار، ويحثّون المؤمنين على قراءته، لأنّ في قراءته فائدة لا تثمّن. يكتب المعلّم أوريجانس (١٨٥-٢٥٣) إلى تلميذه غريغوريوس أسقف قيصريّة الجديدة († ٢٧٠) قائلًا: «أنت إذًا يا سيّدي وابني، اجتهد بعناية كلّيّة، وفوق كلّ شيء في قراءة الكتاب المقدّس. فمن الضروريّ لنا نحن الذين نقرأ الكتب الإلهيّة، أن نحرص بشدّة ألّا نعبّر بتهوّر، أو نأتي بأفكار طائشة حيالها. وفي مداومتك على قراءة النصوص المقدّسة بإيمان وخير يرضي الربّ، اقرع على الكلمات المغلقة، فيفتح لك البوّاب الذي قال عنه يسوع المسيح: «لهم يفتح البوّاب» (يو ١٠، ٣). وأيضًا ابحث باستقامة وإيمان عن معنى الكتابات السماويّة المخفيّة عن الأكثريّة. لكن إيّاك والتوقّف عن القرع والبحث. ولكي تفهم الأمور المقدّسة، لا غنى عن الصلاة، ففي نصحه لنا لم يكتفِ المخلّص بالقول: «أطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم»، بل أمر أيضًا

=المسيحيّة. بعد قراءة الكتب المقدّسة كتب يقول: «أُخذت بحبّ للأنبياء ولجميع هؤلاء الناس أصدقاء المسيح، وردّدت في نفسي جميع هذه الكلمات وعلمت أنّها الفلسفة الوحيدة الأكيدة والنافعة» (**الحوار مع تريفون**، الفصل ٨).

«اسألوا فتعطوا» (متى ٧، ٧)»[٤].

ويعلّق يوحنّا الذهبيّ الفم († ٤٠٧) على المزمور الأوّل، الذي يتكلّم عن الرجل اللّاهج بناموس الربّ نهارًا وليلًا، وهو بذلك يشبه الشجرة المغروسة على مجاري المياه التي تعطي ثمارها في أوانه وورقها لا يذبل، فيقول: «هكذا النفس الواقفة أمام ينابيع الكتب الإلهيّة تستقي منها الحياة، وتنعم بندى الروح القدس، فلا خوف عليها من تقلّبات الحياة المكدّرة، وإذا تعرّضت لمرض أو لوم أو نميمة أو قدح أو استهزاء أو تهاون أو صُبّت عليها مصائب الدنيا، فإنّها تتغلّب على الصعوبات كلّها بسهولة، وتجد التعزية الكافية في مطالعة الكتب المقدّسة. بالإجمال، لا شيء كمطالعة الكتاب المقدّس يعزّي في الأحزان والشدائد، لأنّ كلّ الأشياء فانية ووقتيّة، تزول التعزية بزوالها، أمّا مطالعة الكتب المقدّسة فهي محادثة مع الله، وإذا كان الله تعزيتُنا، فأيُّ شيء يستطيع أن يوقعنا في اليأس؟ فلنطالع الكتابة المقدّسة جيّدًا لا في أثناء الصلاة، عند وجودنا في الكنيسة فقط، بل عند الرجوع إلى البيت لنكون

---

(٤) غريغوريوس العجائبيّ، **خطاب إلى المعلّم أوريجانس**، ترجمة مكاريوس جبّور وناتاشا يازجي، منشورات النور، ٢٠٠٠، ص ٣٨.

أمينين على أنفسنا فليأخذ كلّ منّا التوارة ويفهم ما قيل فيها»[٥].

إذًا، يعتبر آباء الكنيسة أنّ مطالعة الكتاب المقدّس هي الواسطة الأولى والأهمّ للاتّصال بالله، إنّها نوع من المحادثة معه، بها يجد المؤمن تعزية في الأحزان، وأمل في اليأس، وانفراج في ساعة الكَرْب.

أمّا عن الفائدة التي يجنيها المؤمن من جرّاء الانكباب على قراءة هذا الكتاب، فيتابع يوحنّا الذهبيّ الفم، وفي العظة عينها، الكلام عنها فيقول: «التمرين على مطالعة الكتب الإلهيّة هو الميناء الهادي والسور الحصين الذي لا ينهدم، والبرج غير المتزعزع والمجد اللّازم، والسلاح الذي لا يغلب والسعادة الخالية من الأكدار، والنعيم الدائم، ومصدر الخيرات التي لا يقدر العقل البشريّ أن يتصوّرها. إنّها تطرد اليأس، وتحفظ الوداعة، وتغني الفقير، وتبعد الأغنياء عن الخطأ، وتجعل الخاطئ صدّيقًا، وتقود الصدّيق

---

(٥) الياس كويتر، **خطيب الكنيسة الأعظم. القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم** (سلسلة «الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم»، ١١)، المكتبة البولسيّة، ١٩٨٨، «عظة عن الإنجيل ومطالعة الكتاب المقدّس وفائدته»، ص ٥١-٥٢.

إلى المأوى الحصين، وتستأصل الشرّ وتزرع الخير حيث لا أثر له، وتطرد الحقد والضغينة والحفيظة، وتردّ النفس إلى الفضيلة وتثبّتها وتديمها، بل هي كالطيب للنفس، ونشيد إلهيّ سرّيّ يميت الشهوات ويستأصل أشواك الخطيئة (...). إنّها الطيب المنتشر لا بكمّيّته بل بطبيعته. هكذا تعطينا الكتب الإلهيّة المنفعة العظيمة لا بكثرة كلامها بل بالقوّة الكامنة فيها»[٦]. مَن يقرأ الكتاب المقدّس إذًا، هو كالشجرة المغروسة على مجرى المياه، تبقى دائمة النضارة والاخضرار ومثقلة بالثمار.

ويشدّد أوريجانس أيضًا على المنفعة التي يقتنيها المرء من قراءة الكتب المقدّسة حتّى وإن كان لا يفهم كلَّ شيء، فيقول: «ينبغي لنا ألّا نُحبط عند سماعنا الكتب المقدّسة، حتّى وإن كنّا لا نفهمها؛ ولكن ليكن لنا بحسب إيماننا (مت ٩، ٢٩)، نحن الذين نؤمن أنّ كلّ ما كتب هو من وحي الله، ويفيد في التعليم والتفنيد والتقويم، والتأديب في البرّ (٢ تيم ٣، ١٦). فإذا كان الكتاب المقدّس موحى به، فهو إذًا نافع. وحتّى وإن كنّا لم نختبر منفعته، ينبغي أن نؤمن أنّه نافع. من عادة الأطبّاء أن ينصحوا مرضى العيون باستعمال الطعام حينًا

---

(٦) الياس كويتر، **خطيب الكنيسة الأعظم. القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم**، المرجع السابق، ص ٥١-٥٢.

والشراب حينًا آخر، ومع ذلك أثناء تناول الطعام أو الشراب لا يشعر هؤلاء المرضى أنّهما نافعين، أو أنّهما يعطيان العين نتيجة، ولكن بعد مرور يوم أو يومين أو ثلاثة، تظهر منفعتهما؛ فبانتقالهما إلى العين بطرق غير معروفة، يجليان البصر شيئًا فشيئًا، عندها ندرك أنّ هذا الطعام وهذا الشراب قد نفعا العينين. هكذا ينبغي أن نؤمن بمنفعة وفعّاليّة الكتب المقدّسة لأنفسنا، حتّى وإن كنّا لا ندرك المعنى الآنيّ للنصّ»(٧).

ويحثّ إيرونيمس، في رسالة كتبها سنة ٣٩٥، إلى صديقه الكاهن بولينس (Paulin)، على قراءة الكتب المقدّسة قائلًا: «يفتخر الرسول بولس بأنّه درس الشريعة والأنبياء عند قدمَي غملائيل (أع ٢٢، ٣)، وهكذا إذ تسلّح بهذه الأسلحة الروحيّة استطاع أن يقول فيما بعد بثقة: «ليس سلاح جهادنا بشريًّا، ولكنّه قادر بالله على هدم الحصون، ونهدم الاستدلالات وكلّ كبرياء تحول دون معرفة الله، ونأسر كلّ ذهن لنهديه إلى طاعة المسيح» (٢ كور ١٠، ٤-٥)، وعلّم تلميذه تيموثاوس، الذي كان يعرف الكتب المقدّسة منذ نعومة أظفاره (٢ تيم ٣، ١٥)، وحثّه على دراستها» لكي لا يهمل الموهبة

---

(٧) Cf. ORIGÈNE, *Hom. sur Josué*, 20, 1-2, SC 71, p.

التي فيه والتي نالها بنبوءة مع وضع جماعة الشيوخ أيديهم عليه (١ تيم ٤، ١٣-١٦)، وطلب من تيطس أن يختار الأسقف المتبحّر في الكتاب المقدّس، والمتحلّي ببقيّة الفضائل: «فيلازم الكلام السليم الموافق للتعليم ليكون قادرًا على الوعظ في التعليم السليم والردّ على المخالفين (تي ١، ٩) (. . .)» ويتساءل إيرونيمس: «لماذا سمّي بولس «إناءً مختارًا؟» فيجيب: «بالتأكيد لأنّه الإناء الذي يحوي الشريعة، وخزانة الكتب المقدّسة». ويتابع في الرسالة نفسها ناصحًا صديقه بقراءة كلّ الكتب المقدّسة، ومسمّيًا كلّ كتاب باسمه ومعطيًا فكرة عن محتواه، ويختم رسالته قائلًا: «أناشدك أيّها الأخ المحبوب، عش في وسط هذه النصوص، متأمّلًا فيها، وغير طالب أو عارف غيرها، ألا تعتقد أنّ فعل ذلك هو عيش ملكوت السماوات منذ الآن؟»[٨].

خلاصة القول، لم يكتف آباء الكنيسة بقراءة الكتاب المقدّس ككتاب إلهيّ يحمل في طيّاته رسالة خلاص إلى الإنسان، بل قرأوه أيضًا ككتاب معرفة وحكمة، وحثّوا المؤمنين على قراءته والاغتذاء من تعاليمه، ولكونه موحى به من الله

---

(٨) Cf. A. DUMAS, *Saint Jérôme*, (Les écrits des saints), Belgique, Soleil levant, 1960, p. 152-166.

استشهدوا به في كتاباتهم كسلطة تعليميّة، وذلك أمّا بطريقة حرفيّة صريحة، أو بطريقة ضمنيّة أو من خلال تلميحات لهذا الحدث أو ذاك، لهذه الآية أو تلك، وذلك لدعم تعاليمهم اللّاهوتيّة والأخلاقيّة[٩].

---

(٩) لا بدّ من الإشارة هنا إلى ما تقوم به جامعة ستراسبورغ في فرنسا بإصدارها مجموعة كتب تحمل العنوان التالي (*Biblica Patristica, index des citations et allusions bibliques dans la littérature patristique*)، أي **فهرس بالآيات والاستشهادات والتلميحات الكتابيّة في مؤلّفات آباء الكنيسة**، وقد صدر من هذه المجموعة حتّى تاريخ سنة ٢٠٠٠ سبعة مجلّدات، وكلّ مجلّد يحوي على ما بين الأربعين ألف والخمسين ألف استشهاد كتابيّ: الأوّل يشمل كلّ آباء الكنيسة من القرن الأوّل إلى إكليمنضوس الإسكندريّ وترتليانس؛ المجلّد الثاني كلّ آباء القرن الثالث، باستثناء أوريجانس؛ المجلّد الثالث مخصّص للمعلّم أوريجانس، المجلّد الرابع يطال أوسابيوس أسقف قيصريّة وكيرلّس الأورشليميّ، وأبيفانيوس أسقف سلامينة؛ المجلّد الخامس مخصّص لأقمار الكبّاذوك الأربعة: باسيليوس الكبير، غريغوريوس اللاهوتيّ، غريغوريوس النيصيّ، وأمفلوخيوس أسقف أيقونية؛ المجلّد السادس، مخصّص لهيلاريون أسقف بواتية وأمبروسيوس أسقف ميلانو؛ والمجلّد السابع خاصّ بديدموس الضرير. لم ينته العمل بعد، هناك العديد من الآباء اليونان والسريان واللاتين الذين ينتظرون دورهم. ويجب أن نذكّر بالترجمة الفرنسيّة لما يعرف «بالكتاب المقدّس الإسكندريّ» التي باشرتها الباحثة=

٢- دور الكتاب المقدّس في تحديد عقيدة الآباء والذود عنها

أودّ مقاربة هذه المسألة من زاويتين: أوّلًا، دور الكتاب المقدّس لدى الآباء في مواجهة اليهوديّة، وثانيًا، دور الكتاب المقدّس في مواجهة الهراطقة داخل المسيحيّة.

أ- عانت المسيحيّة منذ نشأتها صراعًا فكريًّا ولاهوتيًّا مع الديانة اليهوديّة، وكان الكتاب المقدّس ساحة هذا الصراع. فاليهوديّة اتّهمت المسيحيّة والمسيحيّين «بسرقة» نصوصها المقدّسة وبتفسيرها بطريقة تثبت حقيقة ظهور المسيح في شخص يسوع واعتلان رسالته الخلاصيّة، والمسيحيّة بدورها رفضت القراءة اليهوديّة الحرفيّة لهذه النصوص. إنبرى آباء الكنيسة، في مواجهة اليهوديّة، للدفاع عن شرعيّة الاستعمال المسيحيّ للعهد القديم وعن قراءته وتفسيره في ضوء حدث اعتلان السيّد المسيح وموته وقيامته. ولنا في كتاب يوستينس الفيلسوف († ١٦٥)، أحد الآباء المدافعين في القرن الثاني، الذي يحمل

=الكبيرة مرغريت آرل مع مجموعة من المتخصّصين، ولقد صدر منها إلى الآن ٦ مجلّدات. تكمن أهمّيّة هذه الترجمة في كون المترجمين علّقوا على النصّ الكتابيّ بتفسيرات آبائيّة وضعوها في الحواشي.

العنوان التالي «حوار مع تريفون اليهوديّ» خير مثال على ذلك. فالشهيد يوستينس يدافع عن القراءة المسيحانيّة لنصوص العهد القديم، ويتّهم اليهود بعدم فهمها لأنّهم لم يؤمنوا بالسيّد المسيح، ويخلُصُ إلى القول إنّ هذه الكتب تخصّ المسيحيّين وليست لليهود فقط، هذا من جهة.

ب- من جهة ثانية، لجأ الهراطقة إلى استعمال الكتاب المقدّس، ولكن بطريقة سيّئة. فاقتطعوا عددًا من آياته غير آبهين للإطار العامّ الذي كُتبت فيه ولا لسياق النصّ، وفسّروها على هواهم دعمًا لأفكارهم وتعاليمهم اللّاهوتيّة غير المقبولة في المسيحيّة.

يصف إيريناوس أسقف ليون († ٢٠٢) طريقة الهراطقة في قراءة الكتاب وتفسيره، فيقول: «يتعلّلون بنصوص غريبة عن الكتاب المقدّس ويستعملونها، كما يقال، «لجدل الحبال بالرمل». ويجتهدون في تكيّف أقوالهم بطريقة مستساغة، فيطعّموها أحيانًا بأمثال الربّ، وأحيانًا بأقوال الأنبياء، وأحيانًا أخرى بأقول الرسل، لكي لا يظهر تلفيقهم خالٍ من الاستشهادات الكتابيّة. إنّهم يقلّبون ترتيب وترابط الكتب المقدّسة، وبقدر ما يتعلّق الأمر بهم، تراهم يخلّعون أعضاء الحقيقة المبثوبة في طيّات الكتاب. يحوّلون ويبدّلون

(. . .) ويُغرون أناسًا بالوهم الضعيف الذي ينتج عن أقوال الربّ المكيّفة بهذه الطريقة. ذلك كمثل صورة أصليّة لملك، رسمها بدقّة فنّان ماهر بواسطة قطع الفسيفساء، فجاء أحدهم وقلب ترتيب الحجارة، لكي يزيل قسمات الملك، فتحوّلت الصورة المجموعة بطريقة سيّئة، إلى صورة كلب أو ثعلب. فانبرى صاحبها إلى الادّعاء بشكل قاطع، أنّها صورة الملك الأصليّة التي صنعها الفنّان الماهر. ولكي يبرهن عن ذلك، عرض الحجارة نفسها التي كان الفنّان الأوّل قد رتّبها بلباقة لكي يصوّر تقاسيم الملك، والتي حوّلها الثاني بقبح إلى صورة كلب. وببريق هذه الحجارة يضلّل البسطاء، أي أولئك الذين يجهلون قسمات الملك، ويقنعهم أنّ صورة الثعلب هي عينها صورة الملك الحقيقة. هكذا يفعل الغنوصيّون، يحيكون قصص نساء عجائز (١ تيم ٤، ٧)، وينتزعون نصوصًا، وأمثالًا وحكمًا من هنا وهناك، ويدّعون أنّهم يكيّفون كلام الله مع قصصهم»[١٠].

للدفاع عن استقامة العقيدة المسيحيّة إذًا، شهر آباء الكنيسة في وجه التيّارات غير الأرثوذكسيّة السلاح عينه، فلجأوا إلى الكتب المقدّسة، وقاموا

---

(١٠) Cf. IRÈNÈE DE LYON, *Contre les hérésies, I, 8.*

بقراءتها وتفسيرها تفسيرًا يتطابق مع قاعدة الإيمان ومع التقليد الرسوليّ المتواتر.

فإيريناوس أسقف ليون (✝ ٢٠٢)، يستند إلى هذه الكتب للذود عن وحدانيّة الله خالق كلّ شيء، في وجه الغنوصيّين الذين قالوا بالثنائيّة، وميّزوا بين إله شرّير، قاس وفظّ، ظهر في العهد القديم، هو الله الخالق، مقابل إله صالح، محبّ للبشر ومخلّص ظهر في العهد الجديد، هو إله يسوع المسيح. فنراه يستعمل كتب العهد القديم، سفر المزامير (مز ١٠٩، ١؛ ٢، ٨) وسفر التكوين (تك ١٩، ١٨، ٢٤؛ ١٧-٣٢ إلخ...)، ورسائل بولس الرسول (غلا ٤، ٨-٩؛ تسا ٢، ٤، ١ كور ٨، ٤-٦ إلخ...)، إضافة إلى الأناجيل (ت ٢٢، ٢١؛ ٦، ٢٤؛ يو ٨، ٣٤ إلخ...)[١١]. وهذا الكتاب عينُه هو سنده في دفاعه عن تجسّد الكلمة، فيستشهد بنصوص من الأناجيل الأربعة، متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا (متّى ١، ١. ١٨؛ مر ١، ١-٢؛ لو ١، ٦٩. ٧٨؛ يو ١، ١٤ ز ١٨ إلخ...)، ومن رسائل الرسول بولس (رو ١، ١-٤؛ ٩، ٥؛ غلا ٤، ٤-٥ كو ١، ١٨ إلخ)[١٢]، وعندما يضطرّ للدفاع عن قيامة الأجساد، نراه

---

(١١) Cf. IRÈNÈE DE LYON, *Contre les hérésies, III,* 6-12.

(١٢) *Ibid., CH., III,* 16-18.

يرجع إلى رسائل بولس التي تتكلّم على هذه العقيدة (١ كور ٦ و ١٤؛ رو ٨، ١١ إلخ...)[١٣].

وحين أنكر آريوس (✝ ٣٣٦) ألوهيّة السيّد المسيح لجأ، كغيره من الهراطقة، إلى الكتاب المقدّس لتبرير تعاليمه، فاستشهد بآيات يظهر فيها المسيح كشخص «مخلوق» أو «مصنوع» (كو ١، ١٥؛ عب ٣، ٢؛ ١ بط ٣، ١٥ وغيرها)[١٤]، وركّز بنوع خاصّ على نصّ من سفر الأمثال، حيث تتكلّم الحكمة (= المسيح) عن ذاتها فتقول: «الربُّ خلقني أولى طرقه قبل أعماله منذ البدء» (أم ٨، ٢٢). إستعمل آريوس هذا النصّ الكتابيّ وغيره للحطّ من قدر الابن ولإنكار ألوهيّته. وعندما كتب أسقفه ألكسندرس (✝ ٣٢٨)، سنة ٣١٩، رسالته الشهيرة ضدّه، ونبّه كلّ الأساقفة إلى أخطار

---

(١٣) *Ibid., CH, V,* 6-8.

(١٤) يدافع آريوس عن آراءه في رسالة بعث بها إلى الأمبراطور قسطنطين الكبير سنة ٣٣٤، فيقول: «لقد تسلّمنا هذا الإيمان من الأناجيل المقدّسة، لأنّ الربّ قال لتلاميذه: «إذهبوا وتلمذوا كلّ الأمم، معمّدين إيّاهم باسم الآب والابن والروح القدس». فإذا كنّا لا نؤمن بهذا، ولا نقبل فعليًّا بالآب والابن والروح القدس، كما تعلّمنا الكنيسة الجامعة والكتب المقدّسة، ونحن نؤمن بكلّ ما تعلّم، فليكن الله ديّاننا اليوم وفي الحياة الآتية». راجع الأبوان ميشال أبرص وأنطوان عرب، **المجمع المسكونيّ الأوّل**، ص ٣٤٢.

التعاليم الآريوسيّة، استشهد هو أيضًا بمجموعة نصوص كتابيّة (يو ١٠، ٣٨. ٣٠؛ ملا ٣، ٦ وغيرها)، مدافعًا عن لاهوت المسيح، واتّهم آريوس ومشايعه باستعمال الكتاب المقدّس وتفسيره بطريقة مغلوطة[١٥]. وانبرى فيما بعد أثناسيوس (٢٩٨-٣٧٣)، الذي خلّف ألكسندروس على كرسيّ الإسكندريّة، إلى تفسير مجموعة آيات كتابيّة كانت موضع إشكال بين الطرفين، بعد أن أضاف إليها نصوصًا أخرى تثبت ألوهيّة المسيح (يو ١٤، ١٠؛ ١٧، ٣؛ ١٠، ٣٠؛ ١٢، ١؛ مت ١١، ٢٧؛ مر ١٣، ٣؛ لو ٢، ٥٣، إلخ...)[١٦].

وعندما وضع هيلاريون أسقف بواتييه († ٣٦٧) مؤلَّفه «**في الثالوث**» المكوّن من اثني عشر كتابًا للردّ على الآريوسيّين، شرح في الكتاب الثاني الآية الإنجيليّة الكريمة: «إذهبوا وتلمذوا كلّ الأمم، معمّدين إيّاهم باسم الآب والابن والروح القدس» (متّى ٢٨، ١٩). وفي الكتاب الرابع والخامس والسادس، استقى مجموعة من الآيات الكتابيّة لا سيّما من العهد القديم، للدفاع عن

---

(١٥) **المرجع السابق**، ص ٣٢٦.

(١٦) أثناسيوس الإسكندريّ، **المقالة الثالثة ضدّ الأريوسيّين**، ترجمة مجدي صموئيل ونصحي عبد الشهيد، («نصوص آبائيّة» ٣٢)، مصر ١٩٩٤.

ألوهيّة الابن في وجه التعاليم الآريوسيّة.

وكذلك فعل باسيليوس الكبير (٣٢٩-٣٧٩) في دفاعه عن ربوبيّة الروح القدس، ضدّ أولئك الذين حاربوها. فاستعمل الكتاب المقدّس وفسّر الكثير من آياته مبرهنًا من خلالها سموّ مجد الروح (٢ تسا ٣، ٥. ١٢-١٣؛ ٢ كو ٣، ١٧-١٨ وغيرها)[١٧].

خلاصة القول، لقد غاص الهراطقة في بحر الكتاب المقدّس، واستخرجوا منه نصوصًا لدعم آراءهم اللّاهوتيّة، بخصوص الله وتجسّد الابن وألوهيّته، وألوهيّة الروح القدس، وقيامة الأجساد وغيرها من العقائد المسيحيّة، فانبرى آباء الكنيسة للدفاع عن هذه العقائد شاهرين في وجه أعدائهم السلاح عينه، أي الكتاب المقدّس، وفسّروا آياته، التي قرأها هؤلاء بطريقة مغلوطة، ودعموا من خلالها التعاليم القويمة.

٣- دور الكتاب المقدّس في الحياة الراعويّة لآباء الكنيسة

بما أنّ القسم الأكبر من آباء الكنيسة كانوا أساقفة ورعاة لكنائس ولجماعات مسيحيّة، فقد

---

(١٧) القدّيس باسيليوس، **مقال عن الروح القدس**، نقله إلى العربيّة الأب أدريانُس شكّور، المكتبة البولسيّة، جونيه - بيروت، ١٩٧٩، فصل ٢٩، ص ٨٨-٩٠.

كان للكتاب المقدّس دور أساسيّ في حياتهم الراعويّة. فقد قرأوا هذا الكتاب وفسّروه في الاجتماعات الكنسيّة أيّام الآحاد والأعياد وفي المواسم الكبرى مثل زمن الصوم الكبير، أو الزمن الخمسينيّ، وشرحوا من خلاله الأسرار المسيحيّة، ولنا في العظات المستاغوجيّة الخمس لكيرلّس الأورشليميّ (٣١٤-٣٨٧)[١٨]، والعظات الثمانية عن المعموديّة ليوحنّا الذهبيّ الفم (٣٤٤-٤٠٧)[١٩]، والعظات التعليميّة (١٢-١٦) لثيودورس أسقف المصّيصة (٣٥٠-٤٢٨)[٢٠]، والكتاب المعنون «في الأسرار» لأمبروسيوس أسقف ميلانو (٣٣٩-٣٩٧)[٢١]، وغيرها من المؤلَّفات الآبائيّة[٢٢]، خير دليل على أهمّيّة الكتاب المقدّس ودوره في بلورة الحياة الراعويّة وتجذّرها في صميم الكتب المقدّسة.

---

(١٨) Cf. CYRILLE DE JÉRUSALEM, *Catéchèses mystagogiques*, SC 126 bis, Paris, Cerf, 1988.

(١٩) Cf. JEAN CHRYSOSTOME, *Huit catéchèses baptismales inédites*, SC 50, Paris, Cerf 1985.

(٢٠) Cf. TONNEAU, R, DEVREESSE, R, *Les homélies catéchétiques de Théodore de Mopsueste*, Studi e Testi 145, Città del Vaticano, 1949.

(٢١) Cf. AMBROISE DE MILAN, *Des sacrements. Des mystères. Explication du Symbole*, SC 25 bis, Paris, Cerf, 1994.

(٢٢) A. HAMMAN, *L'initiation chrétienne*, Paris, DDB, 1980.

إضافة إلى ذلك، كانت لنصوص الوحي وللروايات الواردة فيما بين دفّتي الكتاب أهمّيّة خاصّة لدى آباء الكنيسة لتهذيب الأخلاق المسيحيّة، ولحثّ المسيحيّين على سلوك سبل الفضيلة واجتناب سبل الرذيلة. فكليمنضس الرومانيّ (✝ ١٠٠)، في رسالته إلى أهل كورنتس، يعطي أمثلة عديدة من الكتاب المقدّس لتجنّب رذيلة الحسد، فهناك أوّلًا قصّة قاين وهابيل (تك ٤، ٣-٨)، فالحسد والغيرة هما اللذان دفعا الأخ إلى قتل أخاه، وبسبب الحسد هرب يعقوب من أمام وجه أخيه عيسو (تك ٢٧، ٣١)، وتعرّض يوسف لاضطهاد رهيب وللأسر (تك ٣٧)، والحسد هو الذي أكره موسى على الفرار من وجه فرعون ملك مصر (خر ٢، ١٤)، ومن جرّاء الحسد طُرد هرون ومريم من المعسكر (عد ١٢، ١٤-١٥)، وهذه الرذيلة هي التي ألقت داتان وأبيروم حيَّين في الجحيم (عد ١٦)، وبسبب الحسد استهدف داود (١ مل ١٨-٢٩)[٢٣].

ويستند إكليمنضس إلى هذا الكتاب لإقناع أهالي كورنتس بالتمسّك بأهداف الفضائل، مثل التوبة، من خلال سيرة النبيّ يونان مع أهل نينوى

---

(٢٣) Cf. CLÉMENT DE ROME, *Epître aux Corinthiens*, 4, 1-13.

(يونان ٣، ٤-١٠)[٢٤]، والخضوع الذي جسّده أخنوخ ونوح وإبراهيم (تك ٥، ٢٤؛ سير ٤٤، ١٦-٢٣؛ تك ٦، ٨-٩؛ تك ١٢، ١-٣؛ ١٣، ١٤-١٦؛ ١٥، ٥-٦)[٢٥]، وضيافة الغرباء ومحبّتهم، التي برّ بهما إبراهيم ولوط ابن أخيه وراحاب (تك ١٨، ٢-١٤؛ تك ١٩؛ يش ٢)[٢٦]، وأخيرًا فضيلتَي التواضع والوداعة، اللتين تكلّم عنهما الأنبياء وجسّدهما يسوع المسيح في حياته (إر ٩، ٢٣-٢٤؛ مت ٦، ١٤-١٥؛ ٧، ١-٢؛ إش ٥٣، ١-٢ مطبّق على السيّد المسيح)[٢٧].

أنتقل إلى العظات التعليميّة التي ألقاها كيرلّس أسقف أورشليم (٣١٥-٣٨٧) في منتصف القرن الرابع على طالبي العماد، وفيها يحثّهم على التوبة والثقة بمراحم الله، لتجنّب الوقوع في اليأس من جرّاء السقوط المتكرّر، وهو يأخذ أمثلة من الكتاب المقدّس للإشادة بمحبّة الله للبشر وحدبه عليهم. فما فعله الله في أيّام نوح (تك ٦، ١٣؛ ٧، ١١)، وما حقّقه من خلال راحب البغي (يش ٢، ١١)، وعفوه عمّا اجترمه هرون مع الشعب عندما عبدوا

(٢٤) *Ibid., Epître aux Corinthiens*, 7, 6-8, 4.

(٢٥) *Ibid., Epître aux Corinthiens*, 9.

(٢٦) *Ibid., Epître aux Corinthiens*, 11, 1-12, 8.

(٢٧) *Ibid., Epître aux Corinthiens*, 13, 1-14, 4; 16, 1-17.

العجل المذهّب (خر ٣٢، ٤؛ تث ٩، ٢٠)، وتلطّفه بداود التائب (٢ مل ١١، ٢؛ ١٢، ١-١٢)، ورحمته لسليمان ولآحاب الملك (٣ مل ١١، ٤؛ ٢١، ١٩) وغيرهم، كلّها أمثلة تقود إلى التوبة وإلى التدثّر بمراحم الله وإشفاقاته على بني البشر[٢٨].

وعندما يتوجّه كيرلّس إلى طالبي العماد ويحدّثهم على كيفيّة عيش الإيمان، نراه يلجأ من جديد إلى الكتاب المقدّس مستقيًا منه أمثلة لأشخاص عاشوا الإيمان. فإبراهيم «أبو كلّ المؤمنين» تبرّر بالإيمان (يع ٣، ٧)، ونال إسحق ثمرة الموعد. وبقوّة الإيمان تمكّن بطرس من السير على الماء (متّى ١٤، ٢٩)، ونهض المخلّع وطفق يمشي (متّى ٩، ٢-٧)، وقام ألعازر من بين الأموات (يو ١١، ١-٤٤)[٢٩]. ولا يفوت كيرلّس أن يذكّر طالبي العماد ويحثّهم على قراءة الكتب المقدّسة القانونيّة المعتمدة في الكنيسة: «إقرأ الكتب المقدّسة الاثنين والعشرين سفرًا للعهد القديم التي نقلها إلينا الاثنان وسبعون مفسّرًا (...). إقرأ الاثنين وعشرين سفرًا من هذه الكتب، ولا تطلع على الكتب المنحولة. تأمّل

---

(٢٨) كيرلّس الأورشليميّ، **العظات**، ٢، ٥-١٣.
(٢٩) كيرلّس الأورشليميّ، **المرجع السابق**، ٥، ٥-١١.

بعناية في هذه الكتب وحدها التي نقرأها بثقة في اجتماعاتنا (. . .) حاول أن تحفظها على صفحات قلبك (. . .)»[٣٠].

رأس الكلام في هذا الموضوع، كان للكتاب المقدّس دور ريادي في الحياة الراعويّة لآباء الكنيسة. فلشرح الأسرار المسيحيّة لجأ هؤلاء إلى مَعين الكتاب العزيز، وبيّنوا من خلال أحداثه ونصوصه رموز الأسرار المسيحيّة وكيفيّة عيشها، وعليه اعتمدوا للتنديد بالرذائل التي كانت متفشّية بين العديد من المسيحيّين، وللحثّ على عيش الفضائل.

٤- دور الكتاب المقدّس في الحياة الروحيّة والصوفيّة لآباء الكنيسة

لقد استقى آباء الكنيسة أسس الحياة الروحيّة والصوفيّة من صفحات الكتاب المقدّس. فأوريجانس (١٨٥-٢٥٣) مثلًا يقدّم لنا عدّة طرق تقود النفس إلى حالة الاتّحاد بالله، وكلّها مستقات من الكتاب المقدّس. فخروج الشعب الإسرائيليّ من أرض مصر، أرض العبوديّة، والدخول إلى أرض الميعاد، أرض الحرّيّة، هو الصورة الأكمل لكلّ المساعي التي تقوم بها النفس للبلوغ إلى هذا

(٣٠) كيرلّس الأورشليميّ، **المرجع السابق**، ٤، ٣٣-٣٦.

الاتّحاد[٣١]. وفي موضع آخر يتكلّم معلّم الإسكندريّة أيضًا، على ثلاثة مراحل تقود النفس إلى حالة القربى مع الله، وفقًا لترتيب الكتب المقدّسة الذي نسبها التقليد الكتابيّ إلى سليمان: الأمثال، الجامعة، ونشيد الأناشيد. فالكتاب الأوّل، أي سفر الأمثال، يتوافق مع مرحلة التطهّر، وسفر الجامعة مع مرحلة التأمّل، أمّا سفر نشيد الأناشيد، فإنّه يتوافق مع مرحلة الاتّحاد بالله[٣٢]. وأحيانًا كثيرة تصبح المراحل التي يرتقيها الإنسان للبلوغ إلى أوج الحياة الروحيّة المتمثّلة بكتاب نشيد الأناشيد، سبع مراحل، يعبّر عنها أوريجانس بالتسابيح السبع الموجودة في الكتاب المقدّس. فلكي تصل النفس إلى مرحلة الاتّحاد بخالقها، عليها أوّلًا على مثال الشعب قديمًا: «أن تخرج من أرض مصر وأن تعبر البحر الأحمر»، أي أن تترك الخطيئة وتجتاز إلى أرض النعمة، عندها يمكنها أن تنشد التسبحة الأولى التي أنشدها موسى وبنو إسرائيل «لنسبّح الربّ فإنّه قد تعظّم بالمجد» (خر ١٥، ١). بعد ذلك تجتاز النفس روحيًّا

---

(٣١) يشرح أوريجانس هذه المسيرة في العظة السابعة والعشرون عن سفر العدد وفي العظة الثالثة عن سفر الخروج.

(٣٢) Cf. J. DANIÉLOU, *Platonisme et théologie mystique*, 18-23.

الصحرء فتصل إلى البئر، وهناك تنشد مع بني إسرائيل: «أخرجي يا بئر ماءك» (عدد ٢١، ١٧)، وتتابع بعد ذلك مسيرتها إلى أن تصل إلى المرحلة الأخيرة من التطهّر، عندها تنشد تسبحة موسى: «أنصتي يا سماء فأتكلّم. لتستمع الأرض لأقوال فمي» (تث ٣٢، ١). وترتقي النفس أيضًا درجة أخرى في السلّم الروحيّ دون أن تكفّ عن الجهاد ومحاربة الأعداء غير المنظورين، فتنشد في نهايتها تسبحة دبّورة: «باركوا الربّ» (قض ٥، ٢). في المرحلة الخامسة، تجهّز النفس على أعدائها، أي على كلّ الرذائل، فتنشد إذّاك تسبحة داود: «الربّ صخرتي وحصني ومنقذي» (١ مل ٢٢، ٢). في هذه المرحلة تدرك النفس حضور المحبوب في داخلها، فتنشد، تسبحة أشعيا: «كان لحبيبي كرم في رابية خضراء» (أش ٥، ١). بعد أن تصل النفس إلى أسمى مراتب القربى من المحبوب، بعدما تطهّرت من خطاياها ورذائلها، وأصبحت مستعدّة لعرس الحبيب وللاتّحاد به تنشد نشيد الأناشيد[٣٣].

ولنا أيضًا في كتاب **حياة موسى** لغريغوريوس النيصيّ († ٣٩٤) مثال آخر لاعتماد الكتاب

---

(٣٣) Cf. ORIGÈNE, *Homélies sur le Cantique des Cantiques, I, 1,* (SC 37 bis), p. 67-69.

المقدّس ركيزة للحياة الروحيّة. فالقسم الأوّل من هذا الكتاب هو تفسير حرفيّ نوعًا ما لمختلف مراحل حياة الموسى وفقًا لسفرَي الخروج والعدد. أمّا القسم الثاني فهو تفسير روحيّ وميستيكيّ لحياة المشترع. فتصبح هذه صورة للترقّي في مدارج الكمال، ومثالًا للنفس في مسيرتها نحو الله، فالكمال بنظر أسقف نيصص سير إلى الأمام ونموّ مطّرد وتطوّر متواصل، وموسى يجسّد هذه الفكرة في حياته التي كانت مسيرة إلى أرض الميعاد(٣٤). وينطبق القول عينه على العظات التي وضعها أسقف نيصص على كتاب نشيد الأناشيد(٣٥).

خلاصة

كان للكتاب المقدّس دور أساسيّ في حياة آباء الكنيسة، فقد قرأوا هذا الكتاب وتغذّوا من كلماته ومن نفحة الروح الساريّة في تضاعيفه، وحثّوا المؤمنين على قراءته معتبرين إيّاه كتاب وحي ومعرفة وحكمة، يسمح للمؤمن أن يتواصل مع الله وأن يدخل معه في علاقة خلاصيّة، ويعطيه معارف

---

(٣٤) غريغوريوس النيصيّ، **حياة موسى أو الكمال في مجال الفضيلة**، ترجمة الأب حنّا الفاخوري، المكتبة البولسيّة، ١٩٩٦.

(٣٥) Cf. GRÉGOIRE DE NYSSE, *Le Cantique des cantiques, Les Pères dans la foi 49-50*, Paris, 1992.

علميّة ومبادئ حكميّة وأخلاقيّة. ولمّا استُغلّ هذا الكتاب بطريقة مشوّهة من قِبَل الهراطقة اندفع آباء الكنيسة بدورهم إليه لإثبات العقائد المسيحيّة والذود عنها، وتجلّى اهتمام الآباء بالكتاب المقدّس أيضًا في الحياة الراعويّة، إذ قد اعتُمد كمرجع لفهم الحياة الأسراريّة في المسيحيّة وكمرتكز لتهذيب أخلاق المسيحيّين، لا سيّما أولئك الذين تحوّلوا من الوثنيّة إلى المسيحيّة. وسيكون هذا الكتاب أيضًا هو المرجع الأوّل والأخير في تصوّر المسيرة الروحيّة والصوفيّة لمَن شاء التعمّق في الحياة المسيحيّة والذهاب بها إلى ما هو أبعد من المعتاد.

ولكن يبقى السؤال مطروحًا: هل كان استعمال الآباء للكتاب المقدّس مثاليًّا لا تشوبه شائبة، يدفعنا نحن أبناءهم إلى استعماله بالطريقة عينها؟ لا يشكّ أحد بالدور المهمّ الذي قام به الكتاب المقدّس عند آباء الكنيسة، ولكن ذلك لا يعني أنّ الآباء استعملوه دائمًا بالطريقة المُثلى. هنا أودّ أن أشير بسرعة إلى بعض النواحي السلبيّة في استعمال الكتاب وقراءته وتفسيره عند آباء الكنيسة.

أ- لقد غالى بعض الآباء في تفسير الكتاب المقدّس، ونَحَوا باتّجاهين هما على طرفي نقيض. فأخذ البعض بالقراءة الحرفيّة المغالية للنصوص

الكتابيّة معتبرين أنّ كلّ ما ورد بين دفّتيه هي وقائع تاريخيّة، لا تقبل التأويل. يجسّد هذا التيّار بعض من الآباء الذين انتموا إلى مدرسة أنطاكية. وغالى البعض الآخر بالقراءة الرمزيّة، التي نزعت عن النصّ الدينيّ كلّ بعد تاريخيّ معتبرة إيّاه رمزًا أو مثالًا لشيء آخر. يجسّد هذا التيّار بعض من آباء مدرسة الإسكندريّة.

ب- على الرغم من انتقادهم اللّاذع للهراطقة ولطريقتهم في قراءة النصوص المقدّسة، وقع العديد من الآباء في إشكاليّة الاستشهاد بالنصوص وبطريقة تفسيرها. فنراهم أحيانًا يستشهدون بآية من الكتاب، فقط لأنّها تحوي كلمة تتطابق مع الموضوع الذي يتكلّمون فيه، عازلين إيّاها عن الإطار الأوسع للنصّ[٣٦]، مكتفين فقط بنسخها دون الدخول في تحليلها، أو مقارنتها مع آيات أخرى تتناقض معها (راجع بهذا الخصوص أوريجانس وغيره). أضف إلى ذلك، أنّهم في بعض الأحيان يحمّلون النصّ أكثر ممّا يحتمل، ويخلصون إلى نتائج لاهوتيّة وأخلاقيّة سريعة.

ج- بالرغم من استعمال العديد من الآباء

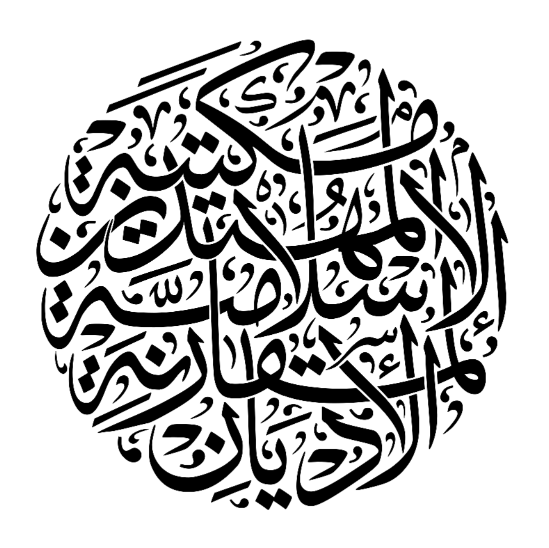
---

(٣٦) تسمّي الوثيقة الصادرة عن اللجنة الكتابيّة الحبريّة **التفسير البيبليّ في الكنيسة**، هذه الطريقة «استفراد تعابير بيبليّة من إطارها»، ص ٩٠.

العلوم التي كانت سائدة في أيّامهم، علم فلك، وعلم الرياضيّات، وعلم العدد، وعلم الطبيعة، وعلم النبات إلخ... في سبيل تفسير الكتاب المقدّس (راجع عظات باسيليوس الكبير عن ستّة أيّام الخلق)، وهذا ما يشجّعنا نحن حاليًّا على استعمال العلوم المعاصرة لنا عند تفسير النصوص الكتابيّة. إلّا أنّ قسمًا منهم وقف موقف الحذر والريبة من هذه العلوم، لا بل حاول الحطّ من قدرها كلّما تعارضت مع النصّ الملهم، وفي حال توافقت مع معطياته، اتّهموها بأنّها سرقت معارفها من الكتاب الإلهيّ (راجع المدافع تاتيانس، وخطابه إلى اليونانيّين، وإيبفانيوس أسقف سلامينا).

د- من جرّاء قراءة محدودة للكتاب المقدّس، لكي لا أقول مشوّهة، ساهم البعض من آباء الكنيسة، نوعًا ما، في المحافظة على أوضاع اجتماعيّة مجحفة بحقّ المرأة مثلًا، وعلّوا من قدر حياة التبتّل والرهبنة على حساب الحياة الزوجيّة، وقوّوا عبر مواعظهم العداء للديانة اليهوديّة، من خلال اتّهام أبنائها وتحميلهم مسؤوليّة صلب المسيح وموته، وأخيرًا تواطأ البعض منهم مع السلطة الحاكمة واستغلّوها للمحافظة على مكاسب وحقوق شخصيّة (أوسابيوس القيصريّ).

باختصار، الكتاب المقدّس، لا بل الكتب المقدّسة جميعها، سيف ذو حدّين، والعبرة كلّها في طريقة قراءته وتفسيره. فإمّا أن نجعل من هذه الكتب كتب حياة لنا وللآخرين، أو نجعلها كتبًا تميتنا وبالتالي لا تبعث في الآخرين سوى الموت. وكلّنا أمل أن تتحوّل الكتب المقدّسة في كلّ الديانات، كتب حياة لزماننا الحاضر ولكلّ الأزمنة، ومصدر غناء لحضارة الحبّ والسلام.



النصّ الإلهيّ وشريعة البشر

محمّد حسن زراقط
معهد المعارف الحكميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد نُحت العنوانُ بعناية فائقة مركّزة جعلته يتضمّن الإشارة إلى إشكاليّات عدّة في كلمات لا تنوف على الأربع إلّا بحرف واحد. وبالرغم من كون الحديث عن العنوان قد يبدو تطويلًا من غير طائل إلّا أنّ الرغبة في إيضاح المفاهيم والانطلاق إلى معالجة الإشكاليّات الأبرز من أرضيّة واضحة في زمن اللّاوضوح وعجقة المصطلحات، هذه الرغبة في الوضوح تشفع لي في الوقوف دقيقة كلام بين يدي المصطلحَين المفتاحيين في العنوان.

النصّ الإلهيّ

النصّ كلمة ضاربة الجذور في تربة العربيّة لغةً واصطلاحًا. ففي اللغة تشير هذه المفردة إلى الرفعة والبروز الذي يسمح بالوضوح والظهور، ومنه اشتقّت كلمة المنصّة؛ لأنّها مكان النصّ أي

الوضوح والظهور والرفعة[1]. ويبدو أنّ هذا المعنى اللغويّ تسرّب إلى الاصطلاح في علمَي الفقه وأصوله والحديث الإسلاميّ؛ حيث قسّم الفقهاءُ الحديث إلى ظاهر ومجمل ونصّ. ويريدون بالظاهر ما دلّ على معنى وكان يحتمل غيره بحسب قوانين اللغة الحروفيّة وإن كان لا يقبله بحسب قوانين العرف والتخاطب. ويقصدون بالمجمل المبهم في دلالته، وبالنصّ ما دلّ على معنى بوضوحٍ وشفافيةٍ لا تسمح بورود احتمال غيره. وهذاً المعنى هو الأكثر تداولًا بين الأصوليّين والفقهاء، وفي التراث الاصطلاحيّ قبل استقراره على هذه المعاني مداليل أخرى يمشي بها هذا النصّ عن الشيخ **محمّد بن الحسن الطوسيّ**: «**فأمّا المجمل فيستعمل على ضربَين:**

أحدهما: ما يتناول جملة من الأشياء وذلك مثل العموم وألفاظ المجموع... ويسمّى مجملًا؛ لأنّه يتناول جملة من المسمّيات.

والضرب الآخر: هو ما أنبأ عن الشيء على جهة الجملة دون التفصيل...»[2].

---

(١) إبن منظور، **لسان العرب**، مادّة «نصّ».

(٢) الشيخ محمّد بن الحسن الطوسيّ، **عدّة الأصول**، ط ١، تحقيق محمّد رضا الأسديّ، قم، ١٤١٧هـ، ج ١، ص ٤٠٦.

ثمّ يتابع قائلًا: «**وأمّا النصّ فهو كلّ خطاب يمكن أن يعرف المراد به، وحدّ الشافعيّ النصّ بأنّه: كلّ خطاب علم ما أريد به من الحكم كان مستقلًّا بنفسه أو علم المراد به بغيره وكان يسمّي المجمل نصًّا...**»[3].

وإذا تجاوزنا المصطلح الفقهيّ والخلاف في تحديده فإنّنا نجد أنّ كلمة نصّ في العرف السائد حاليًّا في الدراسات الأدبيّة والدينيّة تدلّ على معنى يتّسع ويضيق بحسب المجال الذي تُستخدم فيه هذه المفردة. ولنتّفق على أنّ المراد من النصّ في العنوان هو كلّ كلام منسوب إلى مصدر دينيّ مكتوب أو منقول مشافهة. وحول توصيف الإلهيّ الوارد في العنوان أودّ الإشارة إلى أنّ فكرة العصمة التي يؤمن بها المسلمون تجعل من النصّ النبويّ وغيره بحسب اختلاف المذاهب الإسلاميّة نصًّا بمنزلة النصّ الإلهيّ من نواح عدّة، عملًا على الأقلّ بقول القرآن ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[4].

شريعة البشر

في إضافة الشريعة إلى البشر احتمالان في ضوء

---

(3) **المصدر نفسه**، ص ٤٠٧.

(4) **سورة النجم**: الآيتان ٣ و٤.

كلٌّ منهما يمكن أن تثار إشكاليّة، فإذا كانت إضافة الشريعة من باب إضافة المصدر إلى فاعله، أثار العنوان مسألة إمكانيّة استفادة البشريّة في تشريعها لحياتها المتغيّرة من نصّ ثابت، وإن كانت إضافة بمعنى اللام أفادت في أحد تجلّياته معنى التداخل بين النصّ المقدّس وحياة المادّة والكثرات غير المقدّسة، وسوف أركّز في كلمتي على معالجة الإشكاليّة الأولى من هاتين الإشكاليّتين وأشير سريعًا إلى أنّ قداسة النصّ لا تنخرم عندما يختلط بنبات الأرض من بنات أفكار البشر وذلك بأنّ قداسة كلّ شيء بحسبه، فالنصّ إذا لم يختلط بالفكر الإنسانيّ ليهديه ويسدّده سوف لن يكون مقدّسًا؛ لأنّ قداسة النصّ تنبع في الواقع من تحقيقه لغرضه والهدف الذي جاء من أجله وهو هداية الإنسان والأخذ بيده للوفود على الله بعد طول كدح ومكابدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[5].

ومن اللّافت أنّ تيّارًا نبت في داخل الفكر الإسلاميّ الفقهيّ حاول أن يؤسّس لمقولة قريبة ممّا نشير إليه، يقول المحقّق القميّ في كتابه **قوانين الأصول**، في إشارة منه إلى موقف هذا التيّار من

(٥) **سورة الانشقاق**: الآية ٦.

الاستفادة من القرآن الكريم: «**الحقّ جواز العمل بمحكمات الكتاب نصًّا كان أو ظاهرًا خلافًا للأخباريّين؛ حيث قالوا بمنع الاستدلال بكلّه على ما نسب إليهم بعضهم وقال إنّ مذهبهم أنّ كلّ القرآن متشابه بالنسبة إلينا ولا يجوز أخذ حكم إلّا من دلالة الأخبار على بيانه...**»[٦].

وبعد ذلك يستمرّ في مناقشة هذا الرأي مبيّنًا ما فيه من وجوه الضعف، فيقول: «... **فنقول الحقّ القول بجواز العمل فأمّا في الصدر الأوّل الذي خوطب به المشافهون؛ فلأنّ الضرورة قاضية بأنّ الله تعالى بعث رسوله ﷺ وأنزل الكتاب بلسان قومه مشتملًا على أوامر ونواهٍ ودلائل لمعرفته وقصصًا عمَّن غبر ووعدًا ووعيدًا وإخبارًا بما سيجيء... وما جعل القرآن من باب اللغز والمعمى بالنسبة إليهم... والحقّ أنّ إعجاز القرآن هو من وجوه أقواها بلاغته لا مجرّد مخالفة أسلوبه لسائر الكلمات ولا يخفى أنّ البلاغة هو موافقة الكلام الفصيح لمقتضى المقام وهو لا يعلم إلّا بمعرفة المعاني...**»[٧]. وهكذا تكرّرت الردود على هذه الرؤية إلى النصّ القرآنيّ، فرفض الكثيرون أن تكون

---

(٦) المحقّق القمي، **قوانين الأصول**، الطبعة الحجريّة القديمة، ص ٣٩٣.
(٧) **قوانين الأصول**، ص ٣٩٣.

قداسة النصّ وشموخ معانيه على حساب الغرض المقصود منه. يقول السيّد محمّد باقر الصدر في مقام مناقشة هذه المقولة: «. . . **فلأنّ كلّ كتاب لا بدّ وأن يتناسب مع الغرض الذي من أجله أُلّف ذلك الكتاب وكلّما كان صاحبه أعلى شأنًا كان وفاء الكتاب بذلك الغرض أكمل وأتقن، [وإذا كان الغرض] هداية الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور وتربيته وتغذيته فكريًّا وروحيًّا وخلقيًّا. . . فهو يتوقّف على أن يكون الكتاب بيانًا واضحًا ونورًا هاديًا لا مُبهمًا ملغزًا**»[8].

النصّ الدينيّ ومنزلته في التشريع

إذًا، وانطلاقًا من التصوّر الأَشْهَر والأكثر قبولًا في الفكر الإسلاميّ، كان للنصّ الدينيّ الإلهيّ دوره الفاعل في التشريع لحياة الإنسان على مختلف الصعد وشتّى الميادين في الحياة الشخصيّة الفرديّة الخاصّة كما في الحياة الاجتماعيّة العامّة. وإذا أردنا استخدام تعبيرات الدراسات القانونيّة، فنقول: كان النصّ الدينيّ هاديًا في التشريع والتقنين لفترات طوال من تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في مجالَي القانون الخاصّ والعامّ كما

---

(٨) السيّد محمّد باقر الصدر، **بحوث في علم الأصول**، ط ٢، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، قم، ١٩٩٧، مج ٤، ص ٢٩٠.

في مجال العبادات ومسائل الأخلاق وغيرها. حتّى قال الكثيرون إنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة حضارةُ نصّ على حدّ تعبير أحد الباحثين المعاصرين؛ حيث يقول: «**وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربيّة بأنّها حضارة النصّ بمعنى أنّها حضارة أنبتت أسسها وقامت علومُها وثقافتُها على أساسٍ لا يمكن تجاهل مركز النصّ فيه. وليس معنى ذلك أنّ النصّ بمفرده هو الذي أنشأ الحضارة فإنّ النصّ أيًّا كان لا ينشئ حضارة ولا يقيم علومًا وثقافة**»[٩]. وتوسّع آخرٌ في بيان مركزيّة النصّ الدينيّ فأرجع إليه علومَ الحساب والرياضيّات والجغرافيا وغيرها من العلوم التي اشتغل عليها العقل العربيّ المسلم، ومستنده في إثبات دعواه هذه: إنّ الله شرّع الإرث، مثلًا، ووضع قواعد لتقسيم التركات بين الورثة فاحتاج الناس إلى علم الحساب لتسهيل وتنظيم القسمة، وأمر بالصلاة إلى جهة الكعبة فاحتاج المسلمون إلى علم الجغرافيا، وفرض الصوم وربطه بالشهر القمريّ فاحتاج الناس إلى الفلك وهكذا... ولا يخفى أنّ هذا الكلام رغم صحّته إلّا أنّه لا يسمح لنا باعتبار هذه العلوم

---

(٩) نصر حامد أبو زيد، **مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن**، ط ٣، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، ص ٩.

علومًا نصّيّة وإن كان النصّ محرّضًا عليها وباعثًا نحوها.

وعلى أيّ حال، ومهما كان في هذه الدعوات من مبالغة إلّا أنّ ما لا يمكن التغاضي عنه هو الدور الذي لعبه النصّ القرآنيّ في التأسيس لبعض العلوم كالفقه والعلوم التي تدور حول رحاه. وفي تحديد سعة دائرة تدخّل النصّ القرآنيّ في التشريع آراء منها ما أشرنا إليه من الحذر من الأخذ بالنصّ القرآنيّ دون توسيط المعصوم وهو الاتّجاه الذي نسب إلى المدرسة الإخباريّة في الفقه الإماميّ. وفي مقابلهم المدرسة الأصوليّة التي أعطت القرآن الكلمة الأساس في عمليّة التقنين والاجتهاد الفقهيّ.

حدود عمل النصّ القرآنيّ

وفي بيان دائرة تأثير النصّ القرآنيّ يمكن رسم دائرتين قبلتهما المدرسةُ الأصوليّة:

الدائرة الأولى: التأسيس المنهجيّ

وهي دائرة تنظيم عمليّة الاجتهاد نفسها أو فلنقل أُعطيَ القرآنُ في هذه الدائرة دور التأسيس لمنهج البحث الفقهيّ؛ حيث آمن الفقهاء بأنّ الدليل الذي يعتمدونه في اكتشاف الحكم الشرعيّ لا بدّ من أن يكون يقينيًّا أو قطعيًّا بحسب الاصطلاح المتعارف لديهم، والنصّ القرآنيّ واحد من

النصوص القطعيّة المتوفّرة، بل أضبطها وأكثرها إتقانًا. ولذلك فإنّنا نجدهم يلتزمون بتأسيس أدلّتهم على أسس قرآنيّة. ولتوضيح ما أرمي إليه أشير إلى مثالين: وهو أنّ الفقهاء واجههم سؤالٌ حول مشروعيّة الاعتماد على ما أسموه أخبار الآحاد لإثبات كلمات النبيّ (ﷺ) ويقصدون من أخبار الآحاد كلّ خبر لم يُنقل بطريقة التواتر، فرجعوا إلى القرآن ليستفتوه[10] في العمل بهذا النوع من الأخبار، فأرشدهم إلى جواز العمل بالخبر عندما يكون المخبر ثقة يطمأنّ إلى إخباره ولو لم نصل إلى اليقين عند إخباره، وذلك من خلال الاستدلال بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[11]. والمثال الآخر أنّه واجهتهم خلال عملهم الفقهيّ ومحاولات اكتشافهم للأحكام الشرعيّة من هذه الأخبار المشار إليها أعلاه بعض الأخبار المتعارضة التي يثبت أحدها فكرة ينفيها الآخر، وهنا أيضًا أُعطي القرآنُ الكلمة الفصل فما كان منها مخالفًا للقرآن يُترك وما كان موافقًا له، أو

---

(١٠) أنظر كمثال: محمّد كاظم الخراسانيّ، **كفاية الأصول**، ط ١، مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤٠٩هـ، ٢٩٦.

(١١) **سورة الحجرات**: الآية ٦.

على الأقلّ غير مخالف له، يُعتمد، وذلك على أساس عدد من التوصيات الواردة في السنة الآمرة باعتماد القرآن مرجعًا لترجيح أحد الخبرين على الآخر(١٢).

الدائرة الثانية: دائرة التشريع التفصيليّ

لاحظ الفقهاء عند رجوعهم إلى القرآن وتأمّلهم في آياته انقسام آيات القرآن إلى أقسام منها ما أسموه آيات الأحكام، ومنها غيرها من الآيات التي تتحدّث عن التاريخ والوقائع والقصص والآيات التي تقرّر أصول المعتقد أو ضوابط الأخلاق وغير ذلك من أقسام. وفي إحصائهم لآيات الأحكام مال أكثرهم إلى أنّ عددها يبلغ خمسمائة آية فيها المتكرّر والعامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد والمنسوخ، ولذلك ينزل العدد إلى ما هو أقل(١٣).

ولم يُرضِ حجم هذا الدور المُعطى للنصّ القرآنيّ كثيرًا من الفقهاء، ولذلك نجدهم يوسّعون مفهوم آيات الأحكام إلى ما هو أوسع لتشمل بعض

---

(١٢) أنظر: محمّد كاظم الخراسانيّ، مصدر سابق، ص ٤٤٣.

(١٣) أنظر: المقداد بن عبدالله السيوريّ، **كنز العرفان في فقه القرآن**، ط ٥، المكتبة المرتضويّة، طهران، ١٣٧٣هـ.ش، مج ١، ص ٥.

القصص وبعض الآيات التي تتحدّث عن أمور قد تبدو أنّها مجرّد توصيات أخلاقيّة أو إخبار عن أمم غابرة، فقرّر بعضهم أنّ ذكر القرآن لقضيّة ما دون تعليق عليها يُعدّ إمضاء لها وقبولًا بما تتضمّنه من سلوك، ولكنّ هذه المحاولات ما زالت في بدايتها وهي بحاجة إلى تأصيل أكبر لتصبح جزء من مرتكزات المدرسة الفقهيّة الأصوليّة المعاصرة.

النصّ الثابت والحياة المتغيّرة

والسؤال الذي شغل بال الكثيرين من الفقهاء والباحثين في الفقه هو أنّه كيف يمكن التوفيق بين حركيّة الحياة وسيلانها وبين ثبات النصّ وجموده؟ ويبدو لي أنّ هذه الإشكاليّة صارت أكثر إلحاحًا على العقل الفقهيّ الإسلاميّ في هذا العصر الذي ارتفعت فيه وتيرةُ التبدّل في الحياة وسرعتها إلى درجة لم يعد بالإمكان تجاوزها والقفز من فوقها. وليس الفقه الإسلاميّ هو الوحيد في هذا الميدان، فكلّ مؤسّسات التشريع تواجه ظواهر لا قبل لها بها. والسؤال الذي أطرحه أحيانًا على نفسي هو ما الذي ينبغي أن يكون أوّلًا، هل التشريع ينبغي أن يسبق الوقائع أم الوقائع تستجدّ فيلحقها التشريع الذي ينظّم علاقة الإنسان بها؟ ولست أدّعي الوصول إلى جواب حاسم في هذا المجال، ولكنّني أؤمن أنّ الهوّة بين التشريع والوقائع لا

يحسن أن تكون كبيرة جدًّا، فسرعة الحياة لا ترحم الضعفاء.

وبالعودة إلى الإشكاليّة المطروحة هنا على الفقه الإسلاميّ، أحسب أنّ التأمّل في مسيرة هذا العلم منذ ولادته حتّى عصرنا هذا شهدت تطوّرات مهمّة فاستطاع الفقهُ عبر سنوات طوال أن يفي للنصّ الدينيّ حقّه دون أن يكون ذلك على حساب حركيّة الحياة، وتطوّرت الحضارة العربيّة الإسلاميّة مع وجود النصّ الثابت واحترام قداسته. واستطاع فقهاء المسلمين التشريع لحياة الأمّة من النصّ الثابت مع حفظ حقوق الطرفين. وقد أسعفهم في ذلك مجموعة من الخصائص الموجودة إمّا في النصّ، وإمّا في المنهج المعتمد في استكشاف الأحكام.

خصائص النصّ

أمّا الخصائص الموجودة في النصّ فهي عديدة أبرزها:

أ - إنّ كثيرًا من الآيات التشريعيّة الواردة في القرآن تُعَدّ قواعد بديهيّة عقلائيّة لا يعرض لها التغيير مهما تغيّرت ظروف الحياة وقوالبها الشكليّة، ومثال ذلك أنّ من آيات الأحكام هاتين الآيتين:

١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى

ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[14].

٢ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[15].

وفي هذا النوع من التشريع لا يُتوقّع أن تتغيّر هذه القاعدة التشريعيّة فتصبح العدالة أمرًا مرغوبًا عنه للحفاظ على بنية المجتمعات، أو يتحوّل أكل المال بالباطل وقتل النفس أمرًا ضروريًّا لاستمرار مسيرة الاجتماع الإنسانيّ.

ب- إنّ كثيرًا من التشريعات القرآنيّة المرتبطة بالشكل والقالب لا تمثّل معيقًا لحركة الحياة، فقد طلب القرآنُ مثلًا، الصلاةَ في أوقات محدّدة وبأشكال محدّدة وهنا لا نجد أنّ ممّا يعيق تطوّر الحياة أن يصلّي المسلم إلى جهة الكعبة خمس مرّات في اليوم، إلى غير ذلك من التشريعات التفصيليّة المشابهة.

وأكتفي بهذه الخصائص في آيات النصّ القرآنيّ

---

(١٤) **سورة النحل**: الآية ٩٠.

(١٥) **سورة النساء**: الآية ٢٩.

التشريعيّة لأشير إلى خصائص المنهج التي وفّرت حركيّةً تمنع أيّ تجميد للحياة بسبب النصّ.

خصائص المنهج

لقد بُني الفقهُ الإسلاميّ على مجموعة من القواعد سمحت له بمرونة وحركيّة عالية منها:

أ - **قانون التزاحم**: لقد قرّر الفقهاء أنّه عندما يحصل تضارب بين حكمين بحيث لا يقدر المكلّف على الوفاء بحقّهما معًا دون الوقوع في الحرج أو التكليف بما لا يطاق، وفي مثل هذه الحالات قرّر الفقهاء أن يُقَدّم الحكمُ الأهمّ على الحكم الأقلّ أهمّيّة، مثلًا إذا تعارض الوفاء لحكم وجوب الصلاة مع حكم آخر أكثر أهمّيّة منه قُدِّم الحكم الأكثر أهمّيّة.

ب- **قانون العناوين الثانويّة**: وجد الفقهاء أنّ بعض الموضوعات تكون لها أحكامها الخاصّة الثابتة في الشريعة، ثمّ تنطبق عليها في أثناء الممارسة عناوين أخرى فتأخذ حكم تلك العناوين الجديدة الطارئة، مثلًا: أكل لحم الميتة حرام في الشريعة، فإذا طرأ عنوان الاضطرار على المكلّف يُسمح له بالأكل لرفع حالة الاضطرار والحفاظ على حياته، فيسقط التحريمُ وتشرّع الحلية إلى أن يعود الأمر إلى طبيعته.

ج - **قانون الأحكام التدبيريّة**: إكتشف الفقهاءُ في أثناء عملهم الفقهيّ مجموعةً من النصوص لاحظوا فيها أنّها لا تمثّل حُكمًا شرعيًّا ثابتًا بل هي تدبير استثنائيّ بحكم سلطة النبيّ وولايته، التي يدير شؤون الأمّة من خلالها، واعتبروا أنّ هذا النوع من الأحكام تابع لظرفه الخاصّ الذي شُرّع لأجله، فهو حكم إداريّ وتدبير إجرائيّ وسمّاه بعض الفقهاء بالحكم الولائيّ، لأنّه مبنيّ على الولاية المعطاة للحاكم في إدارة شؤون الأمّة. وأمثلة ذلك كثيرة في الفقه، منها أمرُ النبيّ بالخضاب وإخفاء الشيب في الفترة الأولى من حياته الرساليّة، ثمّ تساءل المسلمون عن استمرار هذا التكليف بعد مدّة، فقيل لهم: «**إنّما قال النبيّ ذلك والدين قل، وأمّا الآن وقد اتّسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار**»[١٦].

د - **بناء الأحكام على المصالح والمفاسد**: يؤمن أكثر فقهاء المسلمين بأنّ الأحكام الشرعيّة الإلهيّة قد شرّعت لتحقيق مجموعة من المصالح للإنسانيّة وتجنيبها مجموعة من المفاسد، ويمثّل هذا التصوّر ضامنًا أساسيًّا

---

(١٦) الإمام عليّ بن أبي طالب، **نهج البلاغة**، شرح محمّد عبده، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ص ١٥٤.

من الضمانات التي تتكفّل بمنع أيّ جمود حرفيّ على حدود النصّ على حساب المصالح الواقعيّة التي أراد الله تحقيقها من خلال تشريعه.

هذه باقة من القوانين المنهجيّة الملزمة للفقيه المسلم والهادية له للتوفيق بين قداسة النصّ واحترامه، وبين قداسة الحياة الإنسانيّة واحترام مقتضياتها الحقيقيّة الواقعيّة. ولا شكّ في أنّ العقل الفقهيّ المسلم مدعوّ بشكل دائم إلى إعادة النظر في مناهجه ووسائله للتوفيق بين الأمرين، بحيث لا يحيف على أحدهما لمصلحة الآخر. وإن أنتج ذلك تغيّرًا في بعض الأحكام، فقد فتح صاحب الرسالة ومؤسّسها الأوّل باب التبدّل في الأحكام تبعًا لمقتضيات الزمان والمكان وتبدّل الظروف وليس نادرة تلك الأحكام التي تغيّرت في العصر الأوّل من عصور التشريع الإسلاميّ في مجال العبادات والمعاملات.

وقد بدأ الفقه الإسلاميّ بالفعل ورشة إعادة النظر هذه في موارد يتعلّق بعضها بمجال العلاقات الزوجيّة وبعضها بمجال قانون العقوبات وغيرها. ومن أمثلة ذلك أنّ الفقه التقليديّ المعروف كان يحدّد مجموعة من العيوب تسمح للزوج أو الزوجة بفسخ العقد دون الدخول في تعقيدات إجراءات

الطلاق، وقد بدأ بعض الفقهاء بزيادة بعض العيوب في ضوء العيوب المقرّرة أصلًا في الشريعة، ومن ذلك إذا تبيَّن بعد الزواج أنّ أحد الزوجين مصابًا بمرض مُعد قاتل، كمرض نقص المناعة المكتسبة. وهناك موارد عديدة تمكن الإشارة إليها، لا يتّسع المقام لذكرها، منها ما بدأ كما قلنا ومنها ما يتوقّع البحث فيه.


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الكتاب المقدّس وقراءاته المتعدِّدة في ضوء العلوم البيبليّة الحديثة(*)

القسّ عيسى دياب(**)
جامعة القدّيس يوسف

ملخّص

يُعتبر القرن التاسع عشر، الذي هو برأينا تتويج لأعمال عصر التنوير، بما فيه عصر النهضة

(*) عُقدت الحلقة الثانية يوم الثلاثاء ٢٦ نيسان ٢٠٠٥، في قاعة معهد المعارف الحكميّة، وقد ترأّسها وأدارها الأستاذ غسّان حمّود، وتكلّم فيها كلٌّ من القسّ عيسى دياب (معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة)، وسماحة السيّد عليّ فحص (معهد المعارف الحكميّة)، والأب بولس روحانا (معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة).

(**) دكتوراه في اللاهوت، دكتوراه في تاريخ ديانات الشرق الأدنى القديم، دكتوراه في ثقافات ومجتمعات العالم العربيّ والإسلاميّ. أستاذ في معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة، جامعة القدّيس يوسف، وكلّيّة اللاهوت الحبريّة، جامعة الروح القدس الكسليك. أستاذ الحضارات في جامعة الشرق الأوسط ومدير مركز دراسات العالم العربيّ في الهيئة الإنجيليّة الثقافيّة - الأردنّ.

والثورة الصناعيّة، تاريخًا مفصليًّا بالنسبة إلى قراءة الكتاب المقدّس. فنستطيع أن نتكلّم على قراءات ما قبل القرن التاسع عشر وقراءات ما بعده. ذلك بأنّ هذا القرن عَرف علومًا إنسانيّة جديدة أسَّست لعلوم نقديّة، طُبِّقت على النصّ المقدّس فنشأت، من جرّاء ذلك، قراءات جديدة كان لها التأثير البليغ في طرق التفسير وتوضّحت أو تبدّلت كثير من المفاهيم اللّاهوتيّة التي كانت سائدة. كان الكتاب المقدّس، قبل تأسيس هذه العلوم الحديثة، يُقرأ حرفيًّا ويؤخذ على أنّه تاريخ صحيح على نحو ما نفهم نحن اليوم التاريخ، كما وتأسّست عليه النظرة القديمة للكون قبل العصر الكوبرنيكيّ. وقد نتج من هذه القراءة تباين بين العلم والدين، بين الكتاب المقدّس والعلوم التاريخيّة والطبيعيّة. بعد نشوء علوم الآثار وتاريخ الأديان وعلوم النقد التاريخيّ والأدبيّ، التي طُبِّقت على قراءة الكتاب المقدّس، فُهم النصُّ على نحو أشدّ واقعيّة ومنطقيّة وتعدّلت، بل تغيّرت كثير من المفاهيم الدينيّة والتأويلات البيبليّة. وأخيرًا، يدعو الكاتب إلى مزيد من تطبيق العلوم الإنسانيّة على النصوص، من أجل توضيح النصّ وفهمه وتأوينه ليصبح أشدّ فاعليّة في المجتمع المعاصر. أمّا مسألة الإيمان، فهي خيار شخصيّ، أخذه المؤمن، وهذا الإيمان لا يُبنى على نصّ جامد أو متحرّك بل على روحانيّة

نابعة من عمق الكيان الإنسانيّ.

لهذا الموضوع علاقة مباشرة بعلم التفسير. إنّ مخاطر اللجوء إلى تفسير الكتاب المقدّس، دون الأخذ بعين الاعتبار هذه القراءات المتعدّدة وامتلاك مهارات علميّة معيّنة، هي كمخاطر الإبحار بسفينة دون معرفة الطرق البحريّة، ولنفترض أنّ البحّار وصل بسلامة، لكنّه يكون قد وصل عشوائيًّا إلى ميناء ما.

الكلام على القراءات المتعدّدة للكتاب المقدّس يطول، والعلوم البيبليّة التي أسّست له كثيرة، لذلك سأحصر كلامي في عدد من هذه القراءات التي ظهرت تباعًا في تاريخ علم التفسير، والتي هي:

١ - **القراءة التاريخيّة الأفقيّة**. أي اعتبار الكتاب المقدّس كتاب سرد تاريخيّ يبدأ بقصّة الخليقة في بداية سفر التكوين وينتهي بنبوّات مستقبليّة عن نهاية الزمان.

٢ - **القراءة الحرفيّة**. أي اعتبار الأحداث المرويّة في الكتاب المقدّس قد حدثت بطريقة «المرئيّ والمسموع» (كان يمكن تسجيلها وتصويرها لو كنّا نمتلك الوسائل التقنيّة).

٣ - **القراءات التقليديّة والسلفيّة**. وهي القراءات التي نراعي فيها طرائق روّاد برزوا في هذا

المجال. ونعني هنا خاصّة آباء التقاليد اليهوديّة المختلفة.

٤ - **قراءات الرمزيّة الظاهريّة**. وهي القراءات التي يؤخذ فيها بعين الاعتبار الرموز التقليديّة الظاهرة في النصّ، مثلًا: أورشليم الحاضرة تشير إلى هاجر العبوديّة وأورشليم السماويّة تشير إلى سارة الحرّيّة.

٥ - **قراءات الرمزيّة الباطنيّة**. وهي القراءات التي تفترض أنّ لكلّ ظاهر جليّ باطنًا خفيًّا (من ظهر وبطن الإنسان). وقد برزت هذه القراءة مع بروز الفِرَق الدينيّة الباطنيّة.

٦ - **قراءات الصيغ الأدبيّة المختلفة**. وهي القراءة التي تأخذ بعين الاعتبار الصيغ الأدبيّة المختلفة كالشعر والقصص والرواية والاستعارة والموازاة.

٧ - **القراءة التاريخيّة السياقيّة**. وهي القراءة التي تأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخيّ الذي كُتب أو روجع فيه النصّ وموضوع تطوّر الفكر الدينيّ المصاحب لتطوّر الفكر الإنسانيّ.

٨ - **القراءة الانعكاسيّة**. أي إنّ القارئ الحاضر، وفي ظرف حدث ما، يعود إلى الوراء ليقرأ نصًّا، بعيدًا في الزمن، في ضوء الحدث الذي يعيشه. فمعطيات زمن الكتابة تنعكس على الحدث عند وضعه في زمن حدوثه، مثلًا

الأعداد الكبيرة الواردة في التوراة[1].

وما لن أتطرّق إليه هو: **القراءات الروحيّة التقويّة**، التي وجدت في كلّ العصور وما زالت موجودة وضروريّة، **والقراءة المسيحيّة**، التي وجدت لدى كتاب العهد الجديد وتقاليد المسيحيّة عبر عصورها وما زالت رائجة.

أمّا أهمّ العلوم البيبليّة الحديثة التي كان لها التأثير الكبير في مختلف القراءات فهي:

١ - علم الآثار.
٢ - علم تاريخ الأديان.
٣ - علم الأشكال والأساليب الأدبيّة.
٤ - علوم النقد الكتابيّ.

لقد نشأت هذه العلوم في القرن التاسع عشر، لذلك فقبل الكلام على العلوم والقراءات المتعدّدة، علينا استكشاف الحقبة السابقة للقرن التاسع عشر لجهة كيفيّة قراءة الكتاب المقدّس.

أوّلًا: قراءة الكتاب المقدّس قبل القرن التاسع عشر

قبل العصر الكوبرنيكيّ، كانت القراءة الحرفيّة

---

(١) نعني بالتوراة «البنتاتيوكس» أو أسفار موسى الخمسة، المسمّاة أيضًا أسفار الشريعة.

سائدة نتيجة للقراءة التاريخيّة الأفقيّة المستعملة آنذاك التي كانت توجّه القارئ. وبناء عليه، فإنّ النظريّات الكوزمولوجيّة القديمة كانت تقرأ حرفيًّا في النصوص الكتابيّة[٢]: «المؤسّس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد» (مز ١٠٤ : ٥)؛ «للربّ الأرض وملؤها، المسكونة وكلّ الساكنين فيها. لأنّه على البحار أسسها وعلى الأنهار ثبتها» (مز ٢٤ : ١-٢)؛ «الباسط الأرض على المياه» (مز ١٣٦ : ٦)؛ «أين كنتَ حين أسّستُ الأرض، أخبر إن كان عندك فهم. مَن وضع قياسها؟ لأنّك تعلم. أو مَن مدّ عليها مطمارًا؟ على أيّ شيء قرَّت قواعدها؟ أو مَن وضع حجر زاويتها؟» (أي ٣٨ : ٤-٦)؛ «صانع الأرض بقوّته، مؤسّس المسكونة بحكمته، وبفهمه بسط السموات» (إر ١٠ : ١٢)؛ «الربّ قناني أوّل طريقه، مَن قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مُسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غمر أُبدئت، إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد، ولا البراري ولا أوّل أعفار المسكونة. لما ثبت السموات كنت هناك أنا، لما رسم دائرة على وجه الغمر. لما أثبت السحب من

(٢) النصوص البيبليّة في هذه المقالة هي بحسب «الكتاب المقدّس» ترجمة فاندايك - البستانيّ، ما لم يُشر إلى خلافه.

فوق، لما تشدّدت ينابيع الغمر. لما وضع للبحر حدّه، فلا تتعدّى المياه تخمه. لما رسم أسس الأرض. كنت عنده صانعًا» (أم ٨: ٢٢-٣٠)؛ «مَن صعد إلى السموات ونزل؟ مَن جمع الريح في حفنتيه؟ مَن صرّ المياه في ثوب؟ مَن ثبّت جميع أطراف الأرض؟» (أم ٣٠: ٤)؛ «ألا تعلمون؟ ألا تسمعون؟ ألم تُخبَروا من البداءة؟ ألم تفهموا من أساسات الأرض الجالس على كرة الأرض وسكّانها كالجندب؟ الذي ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن» (أش ٤٠: ٢١-٢٢).

بحسب القراءة الحرفيّة والقراءة التاريخيّة الأفقيّة، يُقسّم الكون إلى ثلاثة مناطق: فوق حيث السماء، مركز سكنى الله وملائكته والفردوس وساكنيه من الموتى الأخيار؛ والأرض، في الوسط، حيث يعيش البشر وحيث تدور أحداث التاريخ؛ وتحت، حيث الهاوية (الشيؤول)، هناك مركز سكن الأبالسة والشياطين ومكان إقامة الموتى والأشرار. ولم يكن أحد يرفض هذه النظريّات لأنّها مؤسّسة على الكتاب المقدّس، على ما كان يُظنّ، وهذا «مقدّس»، ولا علوم تتصدّى لها، بل ومَن يجرؤ على التصدّي لمسلّمات الكتاب المقدّس؟

واستنادًا إلى القراءة الحرفيّة والقراءة التاريخيّة

الأفقيّة، كانت تفهم الأحداث التاريخيّة المدوّنة في أسفار العهد القديم، من التكوين حتّى سفر الأخبار الثاني، على أنّها متسلسلة زمنيًّا. واستعملت سلالات النسب والأعمار لعمليّات حسابيّة من أجل تحديد عمر الأرض، أو عمر آدم، أو تاريخ نوح والطوفان، أو تاريخ برج بابل، أو تاريخ إبراهيم وخروجه، أو تاريخ موسى والخروج من مصر، ثمّ دخول كنعان مع يشوع، وتواريخ قضاة وملوك إسرائيل، إلخ... بل وتاريخ الشعوب يؤخذ من النصّ المقدّس إذ لم تكن المعلومات التاريخيّة من خارجه متوفّرة.

أمّا القراءة التقويّة الروحيّة، التي مورست على مدى العصور، فكانت متأثّرة بهذه النظرة البيبليّة للكوزموس وللتاريخ.

وكذلك، فُهمت القصص التوراتيّة على حرفيّتها. ففي قصّة «الخلق»، كان يُنظر إلى الله كإنسان «يقول» بصوت جهوريّ فيخلق، ثمّ «يجبل» التراب، وينفخ فيه فيخرج إنسان، ويأخذ ضلعًا من آدم فيكوّن منه حوّاء (تك ١-٢). ثمّ نرى الحيّة تسير على أربعة أرجل وتتكلّم وتتحاور مع حوّاء (تك ٣). ثمّ نقع على بشر عاشوا مئات السنين (تك ٥). ونجد طوفانًا غطّى كلّ وجه الأرض، فمات كلّ من وما كان عليها من بشر وبهائم وعادت

الأرض وعمرت بعائلة نوح الحيوانات التي كانت معهم في الفلك (تك ٦-٩). وإلى ما هنالك من قصص غير واقعيّة كانت تقرأ بحرفيّتها.

وبالرغم من نظريّة كوبرنيكس (١٤٧٣-١٥٤٣) حول كرويّة الأرض والنظام الشمسيّ، وتطويره بواسطة كبلر (Kepler) (١٥٧١-١٦٣٠) وغاليليه (Galilée) (١٥٦٤-١٦٤٢)، ظلّت الكنيسة الكاثوليكيّة، والمصلحون البروتستانت، متمسّكين بالصورة القديمة للكوزموس، المبنيّة على القراءة الحرفيّة للكتاب المقدّس. بل وحتّى بعد قيام الثورة الصناعيّة في القرن السابع عشر، ظلّت هذه الصورة مسيطرة في الوعي الدينيّ التقليديّ. ولربّما حتّى اليوم عند البعض من القارئين الحرفيّين للكتاب المقدّس.

ثانيًا: ثورة العلوم في القرن التاسع عشر وتأثيرها على قِراءة الكتاب المقدّس

إنّ آثار الإصلاح البروتستانتيّ وعصر النهضة والثورة الصناعيّة (القرنان السادس عشر والسابع عشر)، وبعد تمخّض طويل، أدّت، في القرن التاسع عشر إلى نشوء علوم إنسانيّة جديدة كان لها الأثر البالغ في المنهجيّة الأكاديميّة وطرق التفكير، الأمر الذي أدّى إلى مقاربة موضوع الدين، بشكل

عامّ، بطريقة مختلفة. فبعد سيطرة الفلسفة السكولاستيّة (المدرسيّة) لفترة طويلة في أوروبّا، حين كانت العلوم الإنسانيّة، بما فيها الدين، مؤسّسة على المسلّمات، نشأت منهجيّة جديدة تدعى «المنهجيّة العلميّة» التي تعطي أهمّيّة كبيرة للعقلانيّة وتعتمد على المصادر الأوّليّة أو الواقع المعاش. أهمّ هذه العلوم التي كان لها الأثر البالغ في قراءة الكتاب المقدّس:

١- علم الآثار(٣)

قبل نشوء علم الآثار، كانت كلّ المعلومات التاريخيّة مسلّمات واردة في العهد القديم، فلا أحد كان يعرف شيئًا عن الأشوريّين مثلًا إلّا ممّا ورد عنهم في الكتاب المقدّس، وكانت هذه المعلومات مسلّمات لا تُناقش ولا يُسأل عن مدى ملاءمتها للحقيقة التاريخيّة ولا تُقارن مع معطيات أخرى لعدم توفّرها. تكوّن هذا العلم على مراحل متعدّدة: مرحلة استكشاف الأراضي المقدّسة (فلسطين) خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر؛ استكشاف منطقة ما بين النهرين ومصر، خلال

---

(٣) Keith N. SCHOVILLE, *Biblical Archaeology*, Grand Rapids: Baker, 1989; Gaalyal CORNFELD, *Archaeology of the Bible Book by Book*, London: Adam and Charles Black, 1976.

النصف الثاني من القرن نفسه؛ ثمّ مرحلة الحفريّات في كلا المنطقتين التي بدأت مع بدايات القرن العشرين وما تزال مستمرّة وأضيف إليها مناطق في سوريا مثل رأس الشمرا (أوغاريت) وتل حريري (ماري) وتل عطشانة (إبلا). من نتائج أعمال الحفريّات أن عثر العلماء على فخّاريّات، وعظام حيوانات وعظام بشريّة، ولوائح كتابات ومومياءات ومدن وحلى وأواني منزليّة ومسلّات وتماثيل آلهة ومعابد وهياكل وإلخ... كان من أهمّ إنجازات الحفريّات أنّ العلماء استطاعوا أن يضعوا لوائح زمنيّة للحقبات التاريخيّة المتعاقبة بدءًا من حقبة ما قبل التاريخ (من ٨٠٠٠-٣٤٠٠ ق.م.) حتّى العصر الهلّلينيّ الرومانيّ (٣٣٠ ق.م. حتّى ٧٠م) مؤسّسة على معطيات تاريخيّة شبه علميّة ملموسة نتجت من دراسة الآثار التي عثر عليها.

وبالنظر إلى الكتاب المقدّس، موضوع اهتمامنا في هذه المقالة، فقد كشف علم الآثار عن كثير من القصص والأخبار التي يوجد مثيل لها في الكتاب المقدّس (قصّة الخلق، قصّة الطوفان)، ومستندات قانونيّة (قانون حمورابيّ وشريعة موسى)، وأسماء أبطال وقادة وملوك وأماكن، تقاطعت مع معطيات الكتاب المقدّس، ومفاهيم دينيّة واجتماعيّة وسياسيّة ألقت الضوء على المعاني الحقيقيّة المقصودة في كثير من النصوص البيبليّة.

كيف أثّر علم الآثار في طريقة قراءة وفهم نصوص الكتاب المقدّس؟

أ - **وضع الأحداث التاريخيّة المذكورة في الكتاب المقدّس في تواريخها الحقيقيّة**. فمع عثورنا على آثار أو متروكات لكثير من الأحداث القديمة المذكورة في الكتاب المقدّس، **أصبح باستطاعتنا أن نضع هذه الأحداث في موقعها التاريخيّ**. بعض الأمثلة: قصّة إبراهيم وسارة وهاجر لتدبير وريث شرعيّ (تكوين ١٦)؛ وقصّة يعقوب وخاله لابان (تكوين ٣٠-٣١) مع ما اكتشف في مدينة نوزي، يجعلنا نضع إبراهيم في النصف الأوّل من الألف الثاني ق.م.، والفرعون الذي لم يكن يعرف يوسف في مصر (خروج ١: ٨)، وقصّة الخروج التي أصبح بالإمكان تحديد تاريخ الحدث (القرن الثالث عشر ق.م.)، وفهم دقائق حقيقته التاريخيّة وطريقة الدخول إلى أرض كنعان (اختراقات بسيطة للمنطقة الجبليّة من فلسطين).

ب- **فهم المعاني الحقيقيّة لكثير من المفاهيم الدينيّة والاجتماعيّة المذكورة في الكتاب المقدّس**. لقد كشف لنا علم الآثار عن مختلف دول عالم الكتاب المقدّس وأحداثه التاريخيّة وحضاراته فعرفنا بالمناخ الدينيّ

والزمنيّ في الحقبات القديمة وتطوّراته عبر الزمن، فأضاءت هذه الحضارات على الكثير من النصوص التي كانت مبهمة في قراءتها الحرفيّة. مثلًا: قصّة الخلق في (تكوين ١-٢) وطريقة قطع العهد كما في (تكوين ١٥) واستبدال الحذاء بين متقدّمين للزواج من نفس المرأة كما في قصّة راعوث (راعوث ٤: ٧-٨) مع مكتشفات مدينة نوزي أيضًا؛ و«طبخ جديّ بلبن أمّه» (خروج ٣٤: ٢٦ وتثنية ١٤: ٢١) مع مكتشفات أوغاريت.

ج - **إلقاء الضوء على بعض النصوص والكلمات من الكتاب المقدّس لفهمها فهمًا صحيحًا**. إنّ مخطوطات البحر الميّت من الأسفار الكِتابيّة قد ساعدتنا على تصحيح لفظ كثير من الكلمات التي كان قد حرّكها علماء الماسوراة خطأً. مثلًا تصحيح كلمة «أسد» (عب: ر أ، شُكّلت فاصبحت أريا = أسد) ب «الرائي» (في أشعيا ٢١: ٨).

بما أنّ كثيرًا من الأحداث المذكورة في الكتاب المقدّس تشكّل جزءًا من تاريخ البشريّة، أصبح بالإمكان فهم إعلان الله للإنسان وتبليغه رسالته عبر تاريخ البشريّة. فالرسالة لم تأتِ في فراغ بل في مضمون تاريخيّ وحضاريّ. وهذا يساعد قارئ

الكتاب المقدّس على فهم رسالة الله له.

٢- علم تاريخ الأديان(٤)

نشأ هذا العلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة للآثار الدينيّة التي وجدها علماء علم الآثار. ولهذا العلم علاقة مباشرة مع كلّ من علم الآثار والتاريخ والأنثروبولوجيا. وأخذ علم تاريخ الأديان المنهجيّة التطوّريّة التي صيغت في نظريّات «النشوء والارتقاء». يركّز علم تاريخ الأديان على محاولة فهم أصول الأديان وتطوّرها عبر التاريخ البشريّ. توصّل هذا العلم إلى بعض الخلاصات النسبيّة، أهمّها:

أ - **الفكر الدينيّ البشريّ لا يبقى جامدًا بل يتطوّر، وتطوّره متعلّق بتطوّر الفكر الإنسانيّ بشكل عامّ**. عندما كان الفكر البشريّ يرى في إبادة المختلف شريعة منطقيّة، نادت الديانات القديمة بوجوب فرض ديانة السلطة على جميع محكوميها، ومَن لا يقبل عليه مواجهة الإبادة. لكن عندما نما الفكر البشريّ وأسّس لشرعة الحرّيّة الفرديّة لجهة الدين والمعتقد، هبّت الديانات، فتهادت من النصوص

(٤) Henri - Charles PEUCH (Directeur d'édition), *Histoires des Religions*, 6 volumes, Paris: Gallimard, 1970-1976.

المقدّسة، وعلّمت هذه الحرّيّة على أسس علميّة.

ب- **يوجد، في كلّ دين، تطوّر تاريخيّ لجهة المفاهيم والممارسات.** ففي الطوطميّة كانت القبيلة تجتمع فتقتل الحيوان الذي كان يُعتقد أنّ الإله متجسّد فيه، وتأكله في احتفال مقدّس. وبُسِّطت هذه الممارسة عبر الزمن لتصبح مجرّد اجتماع الجماعة المؤمنة، في العشاء الربّانيّ، حول الخبز والخمر. كان الإنسان القديم يقدّم ابنه ذبيحة، وتحوّلت هذه العادة إلى ممارسة الختان الذي هو تعبير عن تقديم الشخص إلى الله في احتفال دينيّ.

ج - **تدرّجت الأديان في تطوّرها من المحسوس إلى المجرّد، ومن المحسوس البسيط إلى المحسوس المعقّد فإلى البسيط المجرّد.** ففعل التوبة كان ممارسة البغاء المكرّس، لكنّه أصبح صلاة مكرّسة؛ إنّ أقدم تماثيل للآلهة اكتشفت هي تماثيل بسيطة، ثمّ تطوّرت الديانات إلى أنظمة طقوسيّة معقّدة، ثمّ اختصر في المسيحيّة في فعل المحبّة. لم يعرف إسرائيل التوحيد الخالص إلّا في فترة السبي (٥٨٧-٥٣٩ق.م.).

د - عمدت كلّ ديانة إلى عمليّة توفيقيّة مع الديانة التي سبقتها في المنطقة الجغرافيّة نفسها.

توجد في الديانة الإسرائيليّة القديمة كثير من الصور والمفاهيم التي كانت موجودة في الديانات الوثنيّة التي سبقتها أو عاصرتها. وما اليهوديّة إلّا تطوّر طبيعيّ للديانة الإسرائيليّة القديمة. ولا يُفهم العهد الجديد، النصّ المقدّس للمسيحيّة، فهمًا صحّيًا إلّا بفهم الديانة اليهوديّة في المِرحلة التي نشأت فيها الديانة المسيحيّة.

لقد ساعد علم تاريخ الأديان على دراسة ديانة العهد القديم بدءًا بديانة آباء إسرائيل إلى ديانة موسى إلى التوحيد الصافي في اليهوديّة. وحلّ هذا العلم للقارئ عقدة الفرق الكبير، لجهة مستوى الفكر الدينيّ والصور المرسومة لله في النصّ المقدّس، في مختلف الحقبات التاريخيّة. لقد عاشت الكنيسة أزمة كبيرة في بداية عصرها عندما رفض مارسيون إله العهد القديم ولم يستطع أن يوفّق بينه وبين صورة الله في يسوع المسيح، ولعدم وجود هذا التوضيح الاجتهاديّ، رُفضت آراء مارسيون وفُصِل عن الكنيسة. وحتّى أيّامنا، لا يستطيع قرّاء الكتاب المقدّس التوفيق بين «إله العهد القديم» و«إله العهد الجديد» إلّا بمساعدة استخلاصات علم تاريخ الأديان.

إنّ القراءة التطوّريّة للفكر الدينيّ يمنع الإنسان

من قياس تصرّفات أخلاقيّة قديمة العهد على مقياس أخلاقيّات العصور الحديثة؛ ومن الإتيان بتصرّفات قديمة العهد وتشريعها في العصور الحديثة كأعمال القتل والإبادة الواردة في العهد القديم. وهذا بحدّ ذاته يؤثّر في قراءة النصّ المقدّس تأثيرًا بليغًا.

أمّا لجهة صورة الله في النصّ المقدّس، فالكاتب الملهم رسم صورة الله بحسب الفكر الدينيّ في الحضارة التي كان يعيش فيها. لذلك توجد صور متعدّدة في الكتاب المقدّس عن الله رسمتها أقلام الكتاب الملهمين في ما كتبوه. لكنّ الله روح، مجرّد من كلّ تصوير بشريّ، والصور كلّها التي رُسِمت له هي مجرّد مقاربات بشريّة حضاريّة. ونؤمن مسيحيًّا بأن أبلغ رسم لصورة الله هو حياة يسوع المسيح وأعماله وتعاليمه إذ إنّه، كما قال الكاتب الملهم، «بهاء مجده ورسم جوهره» (عبرانيّين ١ : ٣).

كيف لا يؤثّر كلّ هذا في قراءة النصّ المقدّس وفهمه؟ وكيف يستطيع إنسان تعرّف إلى هذه الأفكار أن يقرأ النصّ المقدّس قراءة حرفيّة جامدة غير آخذة بالاعتبار تطوّر الفكر الدينيّ عبر الزمن؟ إنّ التعرّف على هذه المعلومات لا بدّ أن يذهب بالإنسان، والإنسان المؤمن، إلى أبعاد أخرى في

قراءته للنصّ المقدّس.

٣- علم الأشكال والأساليب والبنى الأدبيّة[٥]

كلّ لغة هي بحدّ ذاتها حضارة، فمفرداتها وجملها وصِيَغها تعبّر عن مميّزات حضاريّة. توجد أشكال أدبيّة مشتركة في كلّ اللغات، وأحيانًا كلّ لغة تعبّر عن نفسها وعن الحضارة التي تنتمي إليها بطريقتها الخاصّة. في عصر التنوير، قرئ الكتاب المقدّس ككتاب ينتمي إلى الآداب القديمة وحلّل بهذه النظرة التحليليّة.

من المعروف أنّ العهد القديم مكتوب، بلغته الأصليّة باللغة العبريّة، ومقاطع قليلة مكتوبة باللغة الآراميّة. وكلتا اللغتان تنتميان إلى عائلة اللغات الساميّة التي لها أشكالها الأدبيّة وأساليبها. أمّا العهد الجديد، فمكتوب باللغة اليونانيّة، ولهذه اللغة أيضًا خصائصها.

اللغة وسيلة للتواصل، والشكل الأدبيّ، وكذلك الأسلوب الأدبيّ وسيلة لتوصيل الفكرة بشكل منمّق ومزخرف، ولهذه دلالات جماليّة تصاحب الفكرة المعبّر عنها، وكلّ تفسير حرفيّ

---

(٥) رياض يوسف داود، **أضواء على البنى الأدبيّة في الأناجيل**، «موسوعة المعرفة المسيحيّة»، الكتاب المقدّس رقم ١٠، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٧.

للإضافات التنميقيّة توجّه التفسير في الاتّجاه الخاطئ. كتب الكتاب المقدّس بأشكال وأساليب أدبيّة مختلفة: من الأشكال الأدبيّة، نجد النثر والشعر والسجع والتوازي. من الأساليب، نعثر في الكتاب المقدّس على الأسلوب القصصيّ (الروائيّ) والإخباريّ (لسرد الأخبار والأحداث التاريخيّة) والشاعريّ والتشبيه والاستعارة والمثل. ولكلّ شكل ولكلّ أسلوب أدبيّ خصائصه التفسيريّة، وعدم أخذ هذا بالاعتبار، يقود المفسّر في طرق مضلّلة.

لكلّ نصّ كامل، قصيرًا كان أم طويلًا، بنية أدبيّة: مقدّمة، قلب الموضوع، خلاصة، أو استعراض فعقدة فحلّ فنتيجة. وعلى قارئ النصّ المقدّس أن يأخذ بالاعتبار البنية الأدبيّة التي ينتمي إليه النصّ المنوي تفسيره.

بعد اكتشاف المخطوطات القديمة، نتج عن قراءتها علم الألسنيّة (Philologie)، ويبحث هذا العلم في أصل معاني الكلمات، لأنّ الكلام يتغيّر معناه مع الوقت ومع تبدّل الدلالات المادّيّة المعبّر عنها في الكلمة. فمثلًا «قطع عهدًا» تعبّر عن احتفال دينيّ لتوقيع معاهدة بين طرفين كان تقطع فيه الذبائح إلى شقّين ويمرّ المتعاقدان بينهما (رج تك ١٥).

إنّ دراسة الأشكال والأساليب الأدبيّة تؤثّر في

قراءة النصّ المقدّس تأثيرًا بليغًا، وعلى القارئ أن يأخذ بعين الاعتبار النقاط التالية:

أ - على القارئ أن يحدّد الشكل الأدبيّ والأسلوب الأدبيّ والبنية الأدبيّة للنصّ المقروء.

ب- على القارئ أن يفهم المعاني الأصليّة للكلمات المستعملة في النصّ، أي ماذا كنت تعني هذه الكلمات عند كتابة النصّ.

ج - على القارئ أن يفرّق بين المحسوسات المستعملة في النصّ اللامعانيّ المجرّدة المعبَّر عنها بهذه المحسوسات.

د - على القارئ أن يعي ماذا يجب أن يفسّر من النصّ كفكرة رئيسة وماذا يجب أن يترك كمكمّل أدبيّ للخبر كما في أسلوب الأمثال.

هـ- على القارئ أن يعي ماذا من النصّ يجب أن يفسّر حرفيًّا، وماذا يجب أن يفهم شاعريًّا أو تشبيهيًّا كالمحسوسات التي تنسب إلى الله: «عينا الربّ»، «يدا الله» إلخ...

٤- علوم النقد الكتابيّ[٦]

كُتب الكتاب المقدّس بواسطة عدد من الكتّاب وفي تواريخ متنوّعة. لكنّ النصوص المصدريّة التي

---

(٦) رياض يوسف داود، **مدخل إلى النقد الكتابيّ**،=

تُترجم عنها كلّ الترجمات (النصّ المسلّم به Textus Receptus، المخطوطات البيزنطيّة) تعود إلى تاريخ يقع بين القرنين التاسع والحادي عشر. لكن، عرف النصف الثاني من القرن التاسع عشر اكتشاف كثير من المخطوطات القديمة لنصوص الكتاب المقدّس، ولعلّ أهمّها المخطوطة السينائيّة التي اكتشفها العالِم تشندورف في دير القدّيسة كاترين في سيناء، والتي تعود إلى القرن الرابع للميلاد، ومخطوطات البحر الميّت التي تعود إلى القرن الثاني ق.م. أي أقدم من النصّ الذي كان متوفّرًا بأكثر من ألف سنة.

إنّ مقارنة النصوص القديمة للكتاب المقدّس، بلغّاتها الأصليّة أو مترجمة، ببعضها البعض أسّس لما يُسمّى اليوم بعلم «تحقيق النصوص» (Critique textuelle).

لقد أثارت العلوم الآنفة الذكر: تاريخ الأديان، النقد الأدبيّ، عندما قُرئ النصّ المقدّس في ضوئها، مجموعة من المواضيع التي يطرحها الدارس عند قراءته النصّ المقدّس: كاتب النصّ، زمن الكتابة، البيئة الحضاريّة، كيفيّة كتابة النصّ، المراحل التي مرّ بها النصّ حتّى وصل إلينا

=«موسوعة المعرفة المسيحيّة»، الكتاب المقدّس رقم ٩، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٧.

في صيغته النهائيّة، التقليد الذي ينتمي إليه النصّ. ونتج عن الاجتهادات في دراسة هذه المواضيع ما يُسمّى بـ«علوم النقد الكتابيّ». وهكذا، أصبحت مجموعة علوم النقد الكتابيّ تحتوي على:

أ - **علم تحقيق النصوص**. يهتمّ بدراسة مخطوطات الكتاب المقدّس القديمة ومقارنتها بعضها ببعض للوصول إلى أقرب ما يمكن من النصّ الأصليّ.

ب- **علم تحقيق المصادر**. دراسة مصادر النصوص المتداولة.

ج - **علم تحقيق التحرير أو التدوين**. كيفيّة وضع النصّ والمراحل التي مرّ بها حتّى وصلنا بصيغته المتداولة اليوم.

د - **علم تحقيق الأشكال والتقاليد**. دراسة التقاليد اللّاهوتيّة التي كتبت النصوص في رحابها.

توصّلت علوم النقد الكتابيّ إلى الاستخلاصات التالية:

+ إنّ أسفار العهد القديم، وخاصّة أسفار الشريعة (البنتاتيوكس) هي نتيجة جمع عدد من التقاليد، أربعة أو خمسة، جمعت ووضعت في صيغتها النهاية في أثناء فترة السبي أي خلال الفترة الممتدّة من ٥٨٧ إلى ٥٣٩ ق.م.

+ لم يُقفل قانون العهد القديم (تحديد الأسفار

القانونيّة) إلّا في نهاية القرن الأوّل للميلاد.

+ ينتمي كلّ إنجيل من الأناجيل الأربعة إلى تقليد خاصّ نما وتحدّد في ظروف مكانيّة وزمانيّة محدّدة فكُتب الإنجيل في ضوء هذا التقليد.
+ أقدم الأناجيل هو إنجيل مرقس، والأناجيل الباقية استقت من مادّته ومن تقليد آخر.

إنّ هذه الاستخلاصات تفرض على القارئ القراءة الانعكاسيّة، فقصّة خروج بني إسرائيل من مصر ودخولهم أرض كنعان انعكست فيها أوضاع المسبيّين وتوقّعهم إلى الخروج من السبي ودخول أرض كنعان. وحدث القيامة والكرازة انعكسا على أخبار حياة يسوع وأعماله وتعاليمه. وفي تدوين هذه الأخبار الانعكاسيّة، لجأ الكاتب الملهم إلى ما يُسمّى (Anachronisme)، أي محاولة وضع الحدث في زمن حدوثه.

الخلاصة

بعد تحليل النصّ المقدّس في ضوء العلوم النقديّة الحديثة، نقرأ نصوص الكتاب المقدّس بالنظرات التالية:

أ - الكتاب المقدّس كلمة الله الموحى بها بالروح القدس، هي نتاج مشاركة بين الله والإنسان، فالله ألهم الكاتب الملهم، وهذا الأخير صاغ رسالة الله الموحى بها في قالبه الأدبيّ

المستوحى من معرفته، وخبرته الدينيّة، والحضارة التي كتب رسالة الله في رحابها. وما الوحي إلّا تدوين، بإرشاد الروح القدس، لعمل الله في التاريخ البشريّ. وتأتي رسالة الله للإنسان من خلال أحداث التاريخ.

ب- ليس الكتاب المقدّس كتاب علم حتّى نستقي منه النظريّات العلميّة، وليس هو كتاب تاريخ حتّى نتعلّم منه تاريخ الشَعوب. تطرّق الكتّاب الملهمون إلى بعض النظريّات العلميّة والمفاهيم التاريخيّة التي كانت متداولة في الزمن والحضارة التي كتبوا فيها.

ج - ليست النبوّة قول المستقبل، بل هي وعظ وتعليم وحثّ على اتّباع الله تطبيق شرائعه ونواميسه وترقّب لتدخّله المستقبليّ في التاريخ البشريّ. إنّ أوضح تحقيق للنبوّة هو عند تحقيق الحدث المتنبّأ عنه.

د - عند قراءة النصّ المقدّس، على الدارس أن يأخذ بعين الاعتبار: الكاتب وبيئته الحضاريّة، زمن الكتابة، المفاهيم الدينيّة آنذاك، البنية الأدبيّة للنصّ، الكلمات في النصّ الأصليّ ومعانيها في زمن الكتابة.

هـ - تعرّض الكتاب المقدّس لعلوم النقد كلّها وخرج منها في حلّة أقرب إلى الحقيقة. إنّ علوم النقد لا تنقض كلمة الله بل تبلورها

وتصفّيها وتجرّدها من كلّ الشوائب العالقة بها. لذلك لا نخاف على الكتاب المقدّس من هذه العلوم النقديّة.

و - وأخيرًا، ما زالت كلمة الله، مفعلة بالروح القدس، حاملة رسالة الله للإنسان، ما زالت تدخل القلوب وتعمل عملها. وننهي مع كاتب الرسالة إلى العبرانيّين: «لأنّ كلمة الله حيّة وفعّالة وأمضى من كلّ سيف ذي حدّين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميّزة أفكار القلب ونيّاته» (عبرانيّين ٤ : ١٢).

وبرأينا، لو بقيت قراءة المسيحيّين للنصّ المقدّس بمعزل عن علوم النقد وعن العلوم الإنسانيّة الأخرى، لبقي المسيحيّون سلفيّين، منعزلين مسجونين في قوالب متحجّرة ومسلّمات بالية، بعيدين عن ركب الحضارة العالميّة بل على عداء معها، يركضون ويبقون في دائرة العصور الوسطى. إنّ تعريض الكتاب المقدّس لعلوم النقد عزّز مصداقيّته للمؤمن وساعده على تأوين مفاهيمه الإيمانيّة لكي يعيشها في عصر العلوم الإنسانيّة الحديثة، ونقل الفكر المسيحيّ نقلة نوعيّة من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وتبثّ بحقّ «أنّ كلّ الكتاب موحى به من الله ونافع للتعليم

والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البرّ لكي يكون إنسان الله كاملًا متأهّبًا لكلّ عمل صالح» (٢ تيموثاوس ٣: ١٦-١٧).

ولا يظنّنّ أحد أنّ قراءة الكتاب المقدّس في ضوء العلوم الإنسانيّة الحديثة تؤثّر سلبًا في نوعيّة ومقدار الإيمان. الإيمان خيار شخصيّ غير مؤسّس على نصّ، بل النصّ يخدمه. الإيمان الشخصيّ ينبع من عمق الكيان البشريّ في الإنسان، لأنّ الإنسان، كلّ إنسان، في أعماقه هو إنسان مؤمن.



الدنيا والآخرة في حياة المؤمن
قراءة في النصوص التأسيسيّة

السيّد عليّ فحص
معهد المعارف الحكميّة

حتّى يتمكّن الباحث والمتتبّع للنصوص الشرعيّة، قرآنًا كريمًا وسنّة نبويّة شريفة، من استخلاص فهم صحيح ودقيق لنظرة الإسلام نحو مفهومَي الدنيا والآخرة، ومدى الترابط بينهما، وما هو تأثير كلٍّ واحد منهما في الآخر، وما هو دورهما في بناء حياة الإنسان المؤمن وتكامله ورقيّه ووصوله إلى السعادة الحقيقيّة، التي ينشدها ويسعى إليها كلّ إنسان بفطرته، وما هي الرؤية الصحيحة والصائبة التي يجب على الإنسان أن يتبنّاها ويبني عليها سلوكه الأمثل وأسلوب تعاطيه، واستفادته القصوى منهما التي توصل المؤمن إلى تحقيق الغايات والأهداف التي ينشدها لسعادته وكماله وخلوده، لا بدّ من استعراض مجموعة من النصوص الدينيّة المتنوّعة سواء كانت من القرآن

الكريم أو من سنّة النبيّ الأكرم (ﷺ) أو من نهج البلاغة للإمام عليّ (عليه السلام) لتكوين الرؤية وتحديد منهج السلوك وفهم المستوى الكبير والوثيق من الترابط والتأثير بين أهمّ وأعظم وأخطر مرحلتين من حياة الإنسان، حيث إنّ مبتنيات الإنسان الفكريّة والسلوكيّة وغيرها في أولى هاتين المرحلتين من حياته تحدّد مستقبله ومصيره في المرحلة الثانية بشكل دائم وأبديّ.

الدنيا ودورها وموقعها في حياة المؤمن من خلال النصوص:

القرآن الكريم: أرادت نصوص القرآن الكريم أن تركّز في عقل المؤمن وقلبه، وتاليًا في سلوكه وعلاقاته وكلّ اختياراته، أنّ الدنيا مرحلة من عمره محدودة ومحكومة بالزوال والفناء والنهاية، وأنّه في لحظة ما سوف تتقطّع كلّ صلاته وعلاقاته معها مهما كانت قويّة وشديدة، وبالتالي فلا يصحّ منه ولا يحسن أبدًا أن تكون هي غايته وهدفه وأن يتعلّق بها ويعمل لها بشكل مستقلّ بعيدًا عمّا تمثّله من مقدّمة لحياة أخرى دائمة وخالدة. وهذا لا يعني أنّ على الإنسان أن ينعزل وينزوي ويترك كلّ الدنيا

تحت عنوان أنّها زائلة وفانية، بل عليه تأدية مسؤوليّات جسيمة وعظيمة على المستوى الفرديّ وعلى المستوى الاجتماعيّ. فعليه أن يكون فاعلًا في الحياة مؤثّرًا في مختلف مراحلها، وعليه أن يساهم مساهمة بنّاءة في إقامة العدل ونشر القِيَم وبناء مجتمع تحكمه القِيَم الإنسانيّة الحقّة في مختلف المجالات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغيرها، بل هناك نوع ارتباط بينهما لا بدّ من الاستفادة منه.

قال تعالى في سورة البقرة الآية ٣٦ ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. هناك علاقة ما بين الإنسان والدنيا المؤقّتة تتمثّل في كونها محلًّا للاستفادة من كلّ الإمكانيّات والقدرات والنِعَم المتاحة ليبلغ بها الإنسان الغاية الحقيقيّة الدائمة والباقية.

قال تعالى في سورة الكهف آية ٨ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾. يفتتن الإنسان في الدنيا بأنواع الفتن من النِعَم والخيرات والأموال وغيرها، لتُكتشف حقيقتُه وهل يتعلّق بالدنيا وزينتها وزهرتها ونِعَمها وما فيها تعلّقًا كاملًا يحجبه عن الخالق والمؤثّر، أو أنّ الدنيا وسيلة وطريقة لبلوغ

هدف أعمق وغاية أهمّ وحياة أكثر خلودًا وبقاءً هل ينظر إليها بعين الاستقلال وأنّها كلّ شيء وما بعدها فناء مطلق لا حياة بعده أم ينظر إليها نظرة المتوسّل بها بلوغ الآخرة والبقاء والسعادة الدائمة؛ يبتغي فيها مرضاة الله تعالى في كلّ النِعَم والخيرات المعطاة والمسخّرة له؛ يبتغي فيها مرضاة علّة العلل وخالق كلّ شيء ومدبّره في كلّ مواقف حياته وأحداثها وعطائها المتنوّعَ بالأعمال المختلفة المتّصلة بالمال والحياة والسلطة والمنصب والأولاد والقدرة وغير ذلك، فيكون عندها سلوكه سلوكًا حسنًا إلهيًّا مقبولًا عند الله تعالى. يقول تعالى في سورة الأعراف ٣٢ ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

لم يحرم عليهم نعيمًا ولم يطلب منهم اعتزالها وتركها بالمطلق، بل قال هي للذين أمنوا في الدنيا يشاركون غيرهم نعيمها وخيراتها وسيشاركهم غيرهم فيها. لكنّ الفرق أنّه لا تحجبهم الدنيا وما فيها عن خالقهم وآخرتهم ودينهم وقِيَمهم ومبادئهم وليست هي همّهم الأوّل والأخير، بل هي الوسيلة والطريق إلى بلوغ الغاية القصوى والنهائيّة فيها، يربّيهم ربّهم ويمتحنهم. قال تعالى في سورة

العنكبوت ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

في المحصلة يريد النصّ القرآنيّ أن يجعل الإنسان واقعيًّا فينبّهه إلى حقيقة لا شكّ فيها بأن عليه أن يُخرج من عقله تصوّر أنّ الحياة الدنيا هدف الإنسان وغايته، بل يقول له إنّها زائفة زائلة مؤقّتة، لا ينبغي أن تكون هدفًا بذاته، ولو كانت في نظر الإنسان كذلك لكانت حياته فارغة جوفاء لأنّ هناك حياة أخرى تمتاز بالدوام والاستمرار والبقاء والخلود، هي حياة الآخرة، وهي جديرة بأن تكون الهدف والغاية للحياة البشريّة. من هنا سعت نصوص القرآن الكريم إلى تصحيح وتصويب علاقة الإنسان بهذه الحياة. ففي الوقت الذي لم تطلب نصوص القرآن الكريم من الإنسان الاعتزال الكامل ولا الانزواء، لم تقبل منه التعلّق بالحياة الدنيا تعلّق أسر وذلّ وخضوع لها.

قال تعالى في سورة الكهف آية ٤٦ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

النعت الدقيق في الآية للمال بأنّه زينة وسمة الزينة الزوال والانتهاء والاضمحلال، فهي لا تصلح لتكون أمل الإنسان، بل الباقيات الصالحات

التي يقوم بها الإنسان في نفس هذه الدنيا. خدمة عباد الله والسعي في قضاء حوائجهم وإقامة النظام العادل الذيب يحترم الإنسان ويعتبره القيمة الحقيقة والمحور للرسالات السماويّة ولبقيّة الأنبياء (عليهم السلام) هي الأمل وهي الثواب والبقاء.

من هنا نجد أنّ القرآن الكريم ذمّ الذين يرضون بالحياة الدنيا ويطمئنّون إليها ويغفلون عن الله وآياته ولقائه تعالى. قال تعالى في سورة يونس آية ٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾.

معنى ذلك أنّ الدنيا لا تصرف الإنسان عن الحقائق وعن القِيَم وعن الله والآخرة ولا يغفل عن المصير الذي سوف يلقاه هي دنيا غير مذمومة، ولا بأس بها إذا اقترنت برجاء لقاء الله تعالى وسعى الإنسان لذلك سعيه وأعدّ له عدّته. فالمطلوب في النصّ القرآنيّ أن تكون الدنيا في خدمة الإنسان وسعادته وليس الإنسان في خدمتها وعبوديّتها... فالنظرة الصحيحة إلى الدنيا والآخرة تقوم على أساس جعل الدنيا وسيلة والآخرة هدفًا والغاية. في حين يقع التنافر والتضادّ بين الدنيا والآخرة عندما يجعل الإنسان الدنيا شغله الشاغل وهمّه الكبير، والآخرة خلف ظهره ومنسية وساقطة من حساباته. في نهج البلاغة الحكمة ٢٦٩ يقوّم الإمام

عليّ (عليه السلام) مصنفًا الناس إلى صنفين: «الناس في الدنيا عاملان: عامل في الدنيا للدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته يخشى على مَن يخلفه الفقر بأمنه على نفسه، فيقضي عمره في منفعة غيره، وعامل عمل في الدنيا لما بعدها فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل فأحرز الحظَّين معًا وملكَ الدارين جميعًا فأصبح وجيهًا عند الله لا يسأل الله حاجة فيمنعه».

عند عليّ (عليه السلام): الآخرة هي المتبوعة والدنيا تابعة منقادة تابعة لها. عندما تكون الآخرة هي المتبوعة دائمًا وهي الكاملة التامّة لا نقص فيها بما أعدّه الله تعالى ووعد به فحقّق في طيّ السعي لها الدنيا الناقصة، في حين لو كانت الدنيا هي المتبوعة وهي ناقصة تحجبنا عن تحقيق الآخرة التامّة لأنّها عند ذلك تكون قاصرة عن ذلك.

نصوص من نهج البلاغة للإمام عليّ (عليه السلام) حول الدنيا والموقف منها:

سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) رجلًا يذمّ الدنيا ويشتمها ويعتبرها ظالمة جارت عليه، وينعى حظّه التعيس فيها وهو المغرور والمفتون ولا مخدوع بها، فقال الإمام: «أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها المخدوع بأباطيلها ثمّ تذمّها أتغترّ بالدنيا ثمّ تذمّها؟ أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك؟ متى

استهوتك أم متى غرّتك؟ أبما صرع أبائك من البلى أم بمضاجع أمّهاتك تحت الثرى؟ كم عدّلت بكفّيك وكم مرّضت بيديك؟ تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفاقك ولم تسعف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنهم بقوّتك. قد مثّلت لك به الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك. إنّ الدنيا دار صدق لمَن صدّقها، ودار عافية لمَن فهم عنها، ودار غنى لمَن تزوّد منها، ودار موعظة لمَن اتعظ بها. مسجد أحبّاء الله ومهبك وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنّة. فمَن ذا يذمّها وقد أذنت بينهما ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها؟ فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوفتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، وابتكرت بفجيعة. ترغيبًا وترهيبًا، وتخويفًا وتحذيرًا. فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدّقوا، ووعظتهم فاتّعظوا».

هنا يلفت الإمام (عليه السلام) الناسَ إلى الحقيقة المستقيمة حتّى لا يتيه الإنسان ويضلّ، وحتّى لا يبدّل الوسيلة بالغاية، والطريق بالهدف، ووسيلة النجاة المرجوّة بالعبوديّة، والذلّة والهوانة، فالإمام (عليه السلام) يؤكّد على إيجابيّة الحياة، وحسنها، ولكن بشرط أن لا يرضى بها الإنسان دار مقامٍ (ولنِعَم

الدار لِمَن لم يرضَ بها دارًا . . .) فالدنيا عند الإمام عليّ (عليه السلام) دار مجاز لا دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم. يسلّط الإمام (عليه السلام) الضوء على مكامن الخير والكمال في الدنيا، وذلك عندما نتّخذها كما اتّخذها أولياء الله تعالى والصالحون متجرًا ومسجدًا ومزرعة للآخرة، ومكانًا لإقامة العدل وحكومة الصلاح والمعروف، ونشر القِيَم والمبادئ وحرّيّة الإنسان وكرامته ومجتمع الفضيلة والإيمان والتربية والأخلاف واحترام الإنسان لأخيه الإنسان.

دورة الآخرة في حياة المؤمن

يعلم الإنسان المؤمن يقينًا أنّه لا يفنى بعد الموت، بل يبقى وتستمرّ حياته بشكلٍ آخر، لا بل تصبح حياته أكثر وضوحًا وأعلى مرتبةً وأرقى من حياته الدنيا. والموت قنطرة وجسر يعبر بالإنسان من ضفّة إلى ضفّة ومن مرحلة من حياته إلى مرحلة أخرى وحياة أرقى وألطف وأفضل. ويؤمن أنّ هناك ما يلازمه في تلك الرحلة الطويلة، وهو عمله وسلوكه ومعتقده وما اكتسبه في حياته الدنيا. لذا، يبني حياته على هذا الأساس الواضح والبيِّن.

دور الآخرة في حياة الإنسان وتكامله وسعادته

القرآن الكريم. إنّ النصوص الدينيّة سواء كانت

في القرآن الكريم أو في الأحاديث الشريف أكّدت بشكلٍ كبير ومتكرّر جدًّا على أهمّيّة الإيمان والاعتقاد بالحياة الآخرة، وربطت ربطًا وثيقًا بين العمل والسعي والعبادة وحمل القِيَم والمبادئ وسلوك المسلك الحسن الجميل في الدنيا وبين سعادة الآخرة، واعتبرت بنفس الوقت أنّ الإيمان بالحياة الأبديّة هو بحدّ ذاتهِ حافز الإنسان ليجدّ وينشط ويسعى ويستقيم حتّى يحصل على رضوان الله تعالى وجنانه وقرب الأنبياء والرسل (عليهم السلام). قال تعالى في سورة البقرة آية ١١٠: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقال كذلك في الآية ٢٨١: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وفي سورة الأعراف آية ٨: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الاستقامة نتيجة الإيمان بالآخرة

عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم): «يا أبا ذرّ حاسب نفسك قبل أن تُحاسب، فإنّه أهون لحسابك غدًا. وزن نفسك قبل أن تُوزن، وتجهّز للعرض الأكبر، يوم تعرض لا تخفى على الله خافية. يا أبا ذر لا يكون الرجل

من المتّقين، حتّى يُحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه؟ أمن حلال أم من حرام؟ يا أبا ذر مَن لم يبالِ من أين اكتسب المال، لم يبالِ الله من أين أدخله النار».

عن أمير المؤمنين في نهج البلاغة

«ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه. ألا وإنّكم في أيّام أمل من ورائه أجل، فمَن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله، قد نفعه عمله، ولم يضرّه أجله. ومَن قصّر في أيّام أمله قبل حضور أجله، فقد خصر عمله، وضرّه أجله. ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وإنّي لم أرَ كالجنّة نام طالبها، ولا كالنّار نام هاربها... ألا وإنّكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم: أتباع الهوى، وطول الأمل».

وقال في وصيّته لولده الحسن (عليه السلام): «واعلم يا بُنيّ أنّك إنّما خُلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة. وأنّك في منزل قُلعة (أي لا يدري ساكنه متى ينتقل عنه) ودار بُلغةٍ (أي تؤخذ منها الكفاية للآخرة) وطريق إلى الآخرة. وأنّك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوته طالبه، ولا بدّ أنّه مدركه. فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حمال سيّئة، قد كنت تحدّث

نفسك منها بالتوبة، فيحول بينك وبين ذلك. فإذا أنت قد أهلكت نفسك». الخطبة ٢٧٠.

يؤكّد الإمام (عليه السلام) هنا في وصيّته لابنه على الغاية التي لا يجوز أن ينساها الإنسان أو أن تغيب عن باله ولا يعني ذلك أنّه يطلب منه أن يكون سلبيًّا في الحياة الدنيا منعزلًا، بل قال عليّ (عليه السلام) في أكثر من مكان: [إعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدًا] أي قم بدورك كاملًا وعلى مختلف المستويات والصعد الفرديّة والاجتماعيّة والتربويّة والسياسيّة والاقتصاديّة وغيرها... ابنِ وعمِّر وكن فاعلًا لكن انتبه إلى آخرتك...

إنّ الإنسان المؤمن الواعي والعارف والمدرك للحقائق الإلهيّة والكونيّة ينظر إلى مفهومَي الدنيا والآخرة نظرة تكامليّة وأنّهما مرحلتان في حياة الإنسان تترك إحداهما أثرًا مهمًّا وأساسيًّا على الأخرى. فهو ينظر إلى الدنيا بإيجابيّة ويراها مثمرة وطيّبة باعتبارها مزرعة للآخرة. فهو يأخذ منها العلم والخير والعبادة والعمل الصالح والقِيَم الإنسانيّة النبيلة مبتعدًا عن اليأس والكسل والانزواء، بل ينشط ويسعى بكلّ جهده ليستفيد من ساعات عمره المحدود ولحظات حياته وكلّ مواهبه وإمكانيّاته بمسؤوليّة وحكمة ليتكامل ويسمو ليخدم عباد الله ويحقّق رسالة الأنبياء (عليهم السلام).

والدنيا في نظره مرحلة تنقضي وتزول لينتقل الإنسانُ إلى الحياة الأبديّة الخالدة في الآخرة حيث يحصد الإنسانُ ما زرعه في الحياة الأُولى... ويصل إلى المصير الذي قرّره في دنياه.

الآخرة بالنسبة إلى المؤمن هي الهدف والمستقرّ حيث السعادة الأبديّة والخالدة بجوار الأنبياء والأولياء وكلّ الصالحين. الإيمان بالآخرة يجعل الإنسان حيويًّا صالحًا معطاءً مجدًّا هادفًا لملء الدنيا فضيلة وقِيَمًا وخيرًا.

وآخر دعوانا أنّ الحمدُ لله ربِّ العالمين


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

مكانة «الكلمة» في الحياة الليتورجيّة

الأب بولس روحانا[*]
جامعة القدّيس يوسف

أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء

يسرّني ويشرّفني أن ألبّي دعوة حضرة الأب صلاح أبو جوده اليسوعيّ إلى المشاركة في الحلقة الثانية والأخيرة من الموضوع الذي يجمعُنا في هذه الأمسية: «النصّ الدينيّ ووظيفتُه في الحياة الروحيّة، الشخصيّة والجماعيّة، في المسيحيّة والإسلام».

لا يسعني في هذه المناسبة إلّا أن أُثني على المبادرة الطيّبة والمشترِكة التي يقوم بها كلّ من معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة التابع لكلّيّة العلوم الدينيّة في جامعة القدّيس يوسف، ومعهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينيّة والفلسفيّة، التي بفضلها يتّخذ الآخر المختلف دينيًّا وجهًا محبّبًا

(*) عميد كلّيّة اللّاهوت في جامعة الروح القدس – الكسليك.

هو وجهُ الأخ والصديق. بفضل تلك المبادرة يحلّ هذا الآخر المختلف ضيفًا كريمًا، نُصغي إليه وهو يحدّثنا من الداخل، أي بصدق، من خلال خبرة إيمانيّة شخصيّة وجماعيّة، عن الأسس والثوابت التي ترتكز عليها علاقة جماعته الدينيّة بالله، وتنظّمها وترسم لها أشكال حضورها في المجتمع، من أجل ترقّي الإنسان وبلوغه السعادة الحقيقيّة التي دعاه الله إليها، وذلك بالسير وفق إرادته القدّوسة كما تكشفها لنا الكتب المقدّسة.

أمّا بعد، فإنّي سأحاول ضمن الوقت المُتاح لي أن أُظهرَ، وفق ما هو مُعلنٌ في برنامج هذه الحلقة، مكانة «**الكلمة**» في «**الحياة الليتورجيّة**». وهذا أمر يدفعني، في القسم الأوّل من هذه المداخلة، إلى أن أحدّد معنى بعض الكلمات والتعابير الأساسيّة، وهذا التحديد يُهّئ بحدّ ذاته للقسم الثاني، الذي يُعنى بإظهار العلاقة بين «الكلمة» والحياة الليتورجية.

أوّلًا: تحديد بعض الكلمات والتعابير الأساسيّة

أ - «الكلمة» أو البيبليا

يُقصد «بالكلمة» هنا «**كلمة الله**» كما هي حاضرة في الكتاب المقدّس في عهدَيه «القديم» و«الجديد»، جريًا على التمييز الذي أدخله بولس

الرسول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس قائلًا: «فهو (أي المسيح) الذي قدّرنا أن نكون خدّامًا **للعهد الجديد**...» (٢ قورنتس ٣/ ٦). ويتابع قائلًا: «لسنا كموسى الذي كان يضع برقعًا على وجهه، لئلّا ينظر بنو إسرائيل إلى نهاية مجد يزول. ولكن أُعمِيَتْ بصائرهم؛ فإن ذلك البرقع نفسه باقٍ إلى هذا اليوم، عندما يقرأون **العهد القديم**، ولا يُكشَفُ عن بصائرهم، لأنّه لا يزول إلّا بالمسيح!» (٢ قورنتس ٣/ ١٣-١٤).

ويخبر «العهد القديم» عن علاقة الله بشعب إسرائيل، كما يظهر ذلك من كتب التوراة والأنبياء والمزامير والكتب التاريخيّة والحكميّة، إلخ. أمّا «العهد الجديد» فإنّه في اعتقاد المسيحيّين ذلك العهد الذي أقامه الله مع شعبه بواسطة ابنه الوحيد يسوع المسيح، وقد بلغ ذروته في حدث الصلب والقيامة، كما سيأتي الكلام عليه لاحقًا. والكتب التي تكشف عن «العهد الجديد» هي الأناجيل الأربعة كما رواها متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا، وأعمال الرسل (أي تاريخ الجماعة المسيحيّة الأولى منذ حلول الروح القدس على التلاميذ والانطلاقة الإرساليّة الأولى للكنيسة)، ورسائل القدّيس بولس ورسائل أخرى، ويبلغ عددها ٢٧ كتابًا.

واسمحوا لي في هذه المداخلة أن أُطلق على

«كلمة الله» أو «الكتاب المقدّس» في عهدَيه القديم والجديد تسمية: «البيبليا».

ب - البيبليا: العهد بين الله وشعبه

إنّ البيبليا هي قبل كلّ شيء كتاب العهد بين الله والإنسان، أو بين الله وشعبه وفق ما ورد في سفر الخروج: «وأخذ (موسى) **كتاب العهد** فتلا على مسامع الشعب فقال: «كلّ ما تكلّم الربّ به نفعله ونسمعُهُ» (خروج ٢٤/ ٧). وقد خُطّت كلماتُه بإلهام من الله كما يقول بولس الرسول في رسالته الثانية إلى تلميذه طيموتاوس: «فالكتاب كلّه إنّما الله ألهمَهُ، وهو مفيدٌ للتعليم، والتوبيخ، والتقويم، والتأديب في البرّ، ليكون رجل الله كاملًا، معدًّا لكلّ عمل صالح». (٢ طيم ٣/ ١٦-١٧). وهذا يدلّ على أنّ البيبليا ليست بالنسبة إلى المؤمنين بها كتابًا فلسفيًّا أو نظريًّا عن الله وعلاقته بالكون والوجود. فالبيبليا لا تُفهم على حقيقتها دون تبيان هذا الرباط الزوجيّ بين الله وشعبه القائم على الحبّ، الذي طالما تغنّى به الأنبياء وبولس الرسول. فالله في مواضع عدّة من البيبليا هو بمثابة الزوج أو العريس والشعب هو بمنزلة العروس. الله في البيبليا، وإن بدا في بعض الآيات متعاليًا وغير مُدرك، فهذا لا يُخفي قطعًا وجهه الانعطافيّ نحو الإنسان المخلوق على

صورته ومثاله، مُقيمًا عهد حبّ معه ليعيده إلى السعادة التي فقدها بالمعصية والغربة عنه.

إنّ هـذا الـبُـعـد الـعـلائـقـيّ (Dimension relationnelle) الإلهيّ - الإنسانيّ بين الله وشعبه، بالاستناد إلى مفهوم العهد، سيجعل من البيبليا التي تروي لنا قصص العهد هذا، مادّة أساسيّة للحياة الليتورجيّة بحيث تبدو تلك الأخيرة احتفالًا جماعيًّا ورسميًّا بهذا العهد. والجدير بالذكر أنّ الليتورجيّا (Leitourgia) في معناها الدينيّ القديم هو «عمل العبادة» (Service du culte) الذي كانت تُقيمه الجماعة الدينيّة بشكل رسميّ لإلهها أو لآلهتها. وبالعودة إلى البيبليا بالمعنى الذي أشرنا إليه أعلاه، فإذا هي لم تكن موضوع الليتورجيّا المسيحيّة، فما عسى أن يكون إذًا موضوعها؟ وفي قولنا هذا نميّز بشكل صريح بين الأساس البيبليّ لليتورجيّا المسيحيّة من جهة، ومن جهة أخرى العبادات والتقويّات الخاصّة والشعبيّة التي لا تستند بشكل مباشر إلى البيبليا كمصدر لها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ البيبليا ليست مادّة الليتورجيّا الأساسيّة وحسب، بل هناك عدد لا يُستهان به من النصوص البيبليّة، من العهدين القديم والجديد، هي في أصلها نصوص شعريّة وليتورجيّة ضُمّت إلى البيبليا. نذكر على سبيل المثال لا

الحصر، كتاب المزامير المنسوبة إلى الملك داود، وعددها ١٥٠، ونشيد الانتصار لموسى بمناسبة تدمير جيش فرعون وخروج بني إسرائيل من مصر (خروج ١٥)، ونشيد حنّة (١ صموئيل ٢/ ١-١٠)، ونشيد مريم «تعظّم نفسي الربّ» (لوقا ١، ٤٦-٥٥)، ونشيد زكريّا الكاهن والد يوحنّا المعمدان (لوقا ١، ٦٧-٧٩)، والنشيد المسيحانيّ في رسالة بولس إلى أهل فيلبّي (٢/ ٦-١١)، وبعض مقاطع من كتاب سفر الرؤيا (Apocalypse) إلخ... وهذا ما يدفع إلى القول بأنّ البيبليا هي في آن معًا كتاب العهد وكتاب ليتورجيّ بامتياز.

بعد هذه التوضيحات الأوّليّة أعرض على مسامعكم بعض المبادئ اللّاهوتيّة الأساسيّة التي ترتكز عليها العلاقة الوثيقة بين البيبليا والليتورجيّا المسيحيّة. وهذه المبادئ هي مشتركة بين المسيحيّين، وإن تنوّعت تقاليدهم الليتورجيّة (الأورشليميّة، والإنطاكيّة، والسريانيّة، والبيزنطيّة والرومانيّة، والقبطيّة، إلخ). فالتنوّع هذا يتعلّق فقط بكيفيّة استعمال البيبليا في الليتورجيّا.

ثانيًا: الأساس البيبليّ اللّاهوتيّ للاحتفال الليتورجيّ المسيحيّ

يُجمع المسيحيّون في تنوّع تقاليدهم الليتورجيّة

على اعتبار حدث موت وقيامة السيّد المسيح من بين الأموات، الذي تمّ في أيّام الفصح اليهوديّ، أساسًا للاحتفال الليتورجيّ المسيحيّ. وهذا الحدث نسمّيه في الخطاب اللّاهوتيّ «الحدث الفصحيّ» (Evénement pascal) أو السرّ الفصحيّ (Mystère pascal). والسرُّ في المفهوم البيبليّ هو «مشروع الله الخلاصيّ» للإنسان الذي يتحقّق في التاريخ البشريّ الذي هو تاريخ خلاصٍ. وبالنسبة إلى الإيمان المسيحيّ، فقد بلغ هذا المشروع الإلهيّ ذروتَه في حدث صلب المسيح وموته وقيامته. وتعتبر الرسالة إلى العبرانيّين أنّ ذبيحة الصليب الخلاصيّة هي نهائيّة وقد تمّت «مرّةً واحدة» (عبرانيّين ٧/ ٢٧؛ ٩/ ١٢، ٢٦؛ ١٠/ ١٠). وفي ضوء هذا السرّ الفصحيّ، رأى الإنجيليّون الأربعة والرسول بولس أنّ ذبيحة الصليب حدثت ليتمّ كلّ ما كُتِبَ عن المسيح في توراة موسى والأنبياء والمزامير. فالمسيح القائم من الموت قال لتلاميذه لما تراءى لهم: «كان ينبغي أن يتمّ كلّ ما كُتِبَ عنّي في توراة موسى، والأنبياء والمزامير. حينئذ فَتَحَ أذهانهم ليفهموا الكتب» (لوقا ٢٤/ ٤٤-٤٥).

في هذا السياق يتّضح لنا كيف أنّ المسيحيّين الأوّلين نادوا بوحدة العهدَيْن بالاستناد إلى فهمهم

وعيشهم وتفسيرهم لحدث سرّ الفصحيّ. في ضوء كلّ هذا نعي كيف أنّ الكنيسة في تنوّع تقاليدها الليتورجيّة حرصت دومًا على استعمال العهد القديم إلى جانب العهد الجديد في احتفالاتها الليتورجيّة. وبهذا إعلانٌ صريح عن وحدة العهدَيْن بالنسبة إليها أوّلًا وعن التواصل بينهما ثانيًا وإن بدا واضحًا أنّ العهد الجديد يُشكّل بحدّ ذاته تمام العهد الذي سبقه وتجاوزًا له.

وقد تركّزت حياة الجماعة المسيحيّة الأُولى على الكرازة أوّلًا بالسرّ الفصحيّ هذا أي بالإعلان عنه بين اليهود والأمم تلبية لإرادة المسيح القائم من الموت: «إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم...» (متّى ٢٨/ ١٩)؛ وثانيًا على الاحتفال الليتورجيّ بهذا السرّ يوم الأحد، ذكرى القيامة، وذلك عند كسر الخبز، ملبّيةً أيضًا وصيّة المسيح لتلاميذه الاثني عشر في العشاء الأخير: «ثمّ أخذ خبزًا، وشكر وكسر، وناولهم قائلًا: «هذا هو جسدي الذي يُبذل من أجلكم. **إصنعوا هذا لذكري**» (لوقا ٢٢/ ١٩؛ ١ قورنتس ١١/ ٢٤-٢٥). فالإعلان عن السرّ الفصحيّ والاحتفال الليتورجيّ به هما وجهان متلازمان ومتكاملان لحقيقة إيمانيّة خلاصيّة واحدة. ويؤكّد ذلك قول بولس الرسول: «فكلّما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تُبشّرون

بموت الربّ حتّى مجيئه» (١ قورنتس ١١/ ٢٦).
ولنا أيضًا في حياة الكنيسة الأولى بعد حلول الروح القدس على التلاميذ يوم العنصرة خيرُ دليل على هذا التلازم حين نقرأ في أعمال الرسل ما يلي: «وكانوا مواظبين على **تعليم الرسل**، والمشاركة، **وكسر الخبز**، والصلوات» (أعمال ٢/ ٤٢).

في الاحتفال الإفخارستيّ، «تتذكّر» الكنيسةُ، أمانةً منها لوصيّة معلّمها، كلّ الأحداث الخلاصيّة التي أنجزها الربّ في تاريخ شعبه، والتي تجدُ تمامها في حدث موت المسيح وقيامته من أجلنا ومن أجل خلاصنا، وتؤدّي الشكر لله عنها كلّها. وأهمّ ما في هذه «الذكرى» هو أنّ هذا الحدث الفصحيّ أو السرّ الفصحيّ الذي تمّ في التاريخ «مرّة واحدة» يُصبح آنيًّا بهذا الاحتفال، أي حاضرًا وفاعلًا في حياة الكنيسة وفي قلوب المؤمنين.

وجديرٌ بالذكر أنّ الاحتفال الليتورجيّ بالسرّ الفصحيّ يوم الأحد كان النواة الأساسيّة التي تمحورت حولها وتنظّمت، حوالَي القرن الخامس، ما يُسمّى «بالسنة الطقسيّة» أو «السنة الليتورجيّة». وتضمّ هذه السنة الأعياد «السيديّة» أي المرتبطة بالسيّد المسيح مع الأزمنة الروحيّة الخاصّة بها، بحيث تحتفل الكنيسة تباعًا على مدار سنةٍ كاملة بميلاد المسيح ودنحه (أي ظهوره العلنيّ يوم

عماده) وصومه وآلامه المحيية وقيامته المجيدة وانتظار مجيئه في نُهية الزمن. وتحتلّ قراءة البيبليا في عهدَيْها القديم والجديد مكانة مرموقة في هذه الاحتفالات فيما تشكّل البيبليا أيضًا المادّة الأساس للصلوات النثريّة والشعريّة التي يتلوها أو يُنشدُها المؤمنون على مدار السنة الطقسيّة.

في ختام هذه المداخلة القصيرة حول العلاقة بين «الكلمة» و«الحياة الليتورجيّة»، لا بدّ من التذكير بأنّ السرّ الفصحيّ الذي هو ذروة البيبليا في عهدَيْها القديم والجديد هو الأساس الصالح والثابت لكلّ عملٍ ليتورجيّ. من هنا كان التفاعل العميق بين البيبليا والاحتفال الليتورجيّ الذي يبلغ ذروته في الاحتفال الإفخارستيّ يوم الأحد. ففي هذا الاحتفال بالذات تتلو الكنيسة في القسم الأوّل منه قراءات من العهدَيْن القديم والجديد، وهذا ما سُمّي «بمائدة الكلمة»، وفي القسم الثاني تُقيم «المائدة الإفخارستيّة» التي تجعلُ من المشتركين بالخبز والخمر - جسد ودم المسيح - جسدًا واحدًا لأنّهم جميعًا يشتركون في الخبز الواحد (١ قورنتس ١٠/١٧).

بعض المراجع لمواصلة البحث

- **المجمع الفاتيكانيّ الثاني** (١٩٦٢-١٩٦٥)، دستور عقائديّ «في الوحي الإلهيّ»؛ دستور «في الليتورجيّا المقدّسة» عدد ٥-٨، ١٠، ٢٤، ٣٥، ٤٧، ٥١، ٥٢، ٨٣-١٠١، ١٠٢-١١١.
- **الليتورجيّا والكتاب المقدّس** (سلسلة محاضرات)، منشورات قسم الليتورجيّا في جامعة الروح القدس، عدد ١٣، الكسليك، لبنان، ١٩٩١. راجع خاصّة محاضرة الأب أغوسطين مهنّا، «الليتورجيّا والكتاب المقدّس: طرح الموضوع»، ص ٣-٢٧.
- **السنة الطقسيّة** (سلسلة محاضرات)، منشورات قسم الليتورجيّا في جامعة الروح القدس، عدد ١٠، الكسليك - لبنان، ١٩٨٨.
- *Dictionnaire encyclopédique de la liturgie*, t. I, A-L, Ed. Brepols, 1992. Lire surtout les articles suivants: «Année liturgique» (51-55); «Bible et liturgie» (129-144); «Eglise et liturgie» (299-306); «Eucharistie» (359-377); «Liturgie» (629-640); «Liturgie des heures» (641-658).
- COMMISSION BIBLIQUE PONTIFICALE, *L'interprétation de la Bible dans*

l'Eglise, collection des documents du Vatican, Rome 1993. Voir surtout les n° 79-82; 103-116.

- راجع الترجمة العربيّة لوثيقة اللجنة البيبليّة الحبريّة، **التفسير البيبليّ في الكنيسة**، سلسلة «بيبليّات»، عدد ٢ ، منشورات المركز البيبليّ الرعائيّ، دير سيّدة المعونات، جبيل، لبنان ١٩٩٥.



فهرس المحتويات


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين